روايات الهلال

قط بئر السبع

أسامة العيسة

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
مجدي سبلة

رئيس التحرير
خالد ناجح

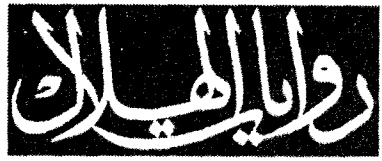

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد
عزالعرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة.
القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج.م.ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٣٦٢٥٤٦٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

ثمن النسخة

سوريا ٤٠٠ ليرة -
لبنان ١٢٠٠٠ ليرة -
السعودية ٢٠ ريالا-
الأردن ٤ دينار-
فلسطين ٤ دولار-
العراق ٤٠٠٠ دينار-
البحرين ٢ دينار-
قطر ٢٠ ريالا -
الكويت ٢ دينار-
الإمارات ٢٠ درهما -
سلطنة عمان ٢ ريال-
اليمن ٨٠٠ ريال -
الجزائر ٢٠٠ دينار-
تونس ٨ دينار-
المغرب ٦٠ درهم -
إيطاليا ٨ يورو-
سويسرا ١٠ فرنك-
المملكة المتحدة ٧ جك-
أمريكا ١٦ دولار

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ١٤٤ جنيها داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٣٠ دولاراً - أوروبا وآسيا وأفريقيا ٣٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٣٥ دولاراً - باقى دول العالم ٤٥ دولاراً.

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الاشتراكات بخطاب مسجل، كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد.

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

الكتاب: قِط بئر السبع
المؤلف: أسامة العيسة
التصنيف: رواية
الناشر: روايات الهلال - دار الهلال
التاريخ: مايو - يونيو ٢٠١٧

رقم الإيداع: ١٣١٢٢/ ٢٠١٧

الترقيم الدولي: 978-977-07-1835-3

روايات الهلال

قِط بئر السبع

أسامة العيسة

صورة الغلاف: جانب من سور سجن بئر السبع

إهداء:

إلى المحرر: محمد الزغاري (أبو الطاهر)

١

لا يتذكر المرة الأُولى التي أثارت فيها انتباهه خلال الفُورة، ولكنه سيتذكر أول قطعة خبز رماها لها، فاقتربت بحذرٍ، وهي تنفث هواء مسموعا عدوانيا، والتقطتها، واختفت مسرعة، وحينها تساءل أمام زملائه وهم يتناولون الطعام، حول العلاقة بين العدوانية والحاجة إلى الطعام، واضطر إلى اعتبار هذه العدوانية، بمثابة شُكر من عالمها إلى عالمه. لا يعرف كيف دخلت إلى ساحة الفُورة، وتمكنت من الخروج، رغم الأسلاك الشائكة المحيطة بالساحة الصغيرة، التي يظل السجين، يلف فيها على نفسه، حتى يفور، ويفور.

يُسمح للسجين، بالخروج إلى الفُورة مرتين، صباحا لتناول الفطُور، وظُهرا لتناول الغداء، جلوسا على أرضية الساحة الحارة في صيف بئر السبع الحارق، أو الباردة، في ليل المدينة الصحراوي القارس.

وكان يمكن أن يشكل دخول قطة إلى السجن نادرة، يتداولها الأسرى فيما بينهم، عن هذه التي اختارت التسلل إلى عالم السجن، ولم تحتمله فغادرت، مثلما دخلت دون أن يلحظها الحُراس، إلا أن ما حدث في الأيام اللاحقة، سيغير كُل التوقعات.

لاحظ إبراهيم الصرعاوي، الذي سيصبح معروفا بإبراهيم

البسة، القطة الشقراء، كما سيحب تسميتها، تتسلل من جديد إلى ساحة الفُورة، وتلحظه بعينيها الحادتين، فرمى لها قطعة صغيرة من الخُبز، تقدمت فالتقطتها، وتراجعت وهي تحملها بين أسنانها، وكرر الرمي، وكررت الالتقاط.

تكرر في الأيام التالية نفس المشهد، وسيعجب لاحقا، من عدم ملاحظة الحُراس المدججين بالسلاح، القطة، التي أصبحت تقترب أكثر، إلى درجة تناول قطع الخُبز من يديه، التي أخذ بغمسها، بأي شيء يُقدم على الفطُور، من الشاي الذي ليس فيه من اسمه سوى لونه، إلى القليل جدا من الزُبدة، التي يقتطعها من قُرص الزُبدة الصغير المغلف، الذي يحصل عليه، أو القليل من اللبنة، عندما يكون يوم اللبنة.

الفطُور الذي يُقدم للسجناء غير كافٍ، ومعظم الأسرى، يشعرون بالجوع، حتّى موعد الغداء، إلا أنه رغم شحه، يشكل تعويضا نسبيا عن الفتات الذي يُقدم لهم على الفطُور.

يخرج الأسرى إلى الساحة لتناول الفطُور في الساعة السادسة، وكثير منهم، يخرجون مُسرعين شبه مهرولين، وما زالوا أسرى للنعاس، تدور في أدمغتهم بقايا نقاشات الليلة الماضية، وهموم سياسية وثقافية واجتماعية، تمتد من فلسطين إلى العالم.

لكل أسير كأس بلاستيكة، تصرف له من إدارة السجن، يحمله معه ويشهره للأسير المكلف بالشاي، الذي يغرف من طنجرةٍ كبيرةٍ، السائل الأسود، الذي تغير طعمه، لمزجه بالكافور، المخلوط بالسائل، لمكافحة شهوات الأسرى الجنسية، أو هكذا تفترض سُلطة السجون

الإسرائيلية، ثم يتناول ما وُضع على صينية بلاستيكية صغيرة، من قطعة خبز، وقطعة زُبدة، أو جُبنة، أو لبنة، وثلاث أو أربع حبات زيتُون، وقطعة مربى صغيرة، مُغلفة على شكل مكعب، وأحيانا ثلث أو نصف حبة بندورة، وعليه أن يختبر قدرته على تناول كُل هذه الأشياء غير الشهية على الريق، وليفتتح صباحا جديدا في هذا المكان، في المدينة التي حلم الأسرى بالعودة إليها مُحررين، فوصلوها أسرى.

يتعود الأسير على تناول كُل ما يُقدم له، ويفلسف الأسرى المسألة، مستندين، إلى تجاربٍ اعتقالية أخرى، لأسرى حُرية في أماكن مختلفة من العالم، فالأسير السياسي، يعتبر تناول الطعام، ليس ترفا، أو حاجة، وإنما وسيلة للبقاء والصمود.

على الغداء، تلتزم الإدارة بتقديم وجبة ساخنة، تتضمن قطعة لها علاقة باللحوم، سيتعلم الأسرى، كيف سيعرفون قطع الدجاج التي لا تشبه الدجاج في شيء، أو ذلك الجزء من السمكة، الذي لا يشبه شيئا في المخلوقات التي تسكن البحار. هي قطع رقيقة قاسية وكأنها مازالت مُجمدة رغم طهوها. سيتعود الأسير على مضغها، وإذابتها في فمه.

بالنسبة للأسرى، تكون وجبة العشاء هي الوجبة الرئيسة، التي يتناولونها في غُرف السجن وبشكل جماعي، يشبه ترتيبا طقوسيا. يتحلقون حول الطعام الذي يحصلون عليه مسبقا، ويُظهر المكلفون منهم بإعداده، مواهبهم في اجتراح وجبات جديدة مما يحصلون عليه، وما يتبقى من خبزٍ أو بقايا الأكل تُستخدم لاحقا، بعكس

وجبتي الفطُور والغداء، حيث لا يُسمح للأسرى، بأخذ أية بقايا إلى الغُرف، ومنها ما يكون شديد الأهمية، مثل فُتات الخُبز الذي يتحول إلى وجباتٍ شهية بإضافة سوائل عليه.

لا يستطيع إبراهيم البسة، ولا أي من أصدقائه، التذكر، متى بالضبط اتخذت القطة قرارها، ولكن هناك اتفاق ما، على أن ما حدث، حدث بعد نحو شهر من التعارف، بينها وبين إبراهيم، وكان كثير من الأسرى شهودا عليه.

٢

بعد أن أنهى الأسرى تناول غدائهم، أو الأصح، مع انتهاء الوقت المحدد للفُورة، لاحظ إبراهيم، أن القطة تسير أمامه، وهو متجه، مع زملائه نحو الغُرفة، فتبادل المُزاح معهم، حول ما تفعله القطة، وإذا ما قررت الاعتقال الطوعي، مع هؤلاء، الذين أعتقل معظمهم في سنٍ مبكرة، وحكمت محاكم الاحتلال عليهم، أحكاما مديدة بالسجن، لممارستهم الكفاح المسلح ضد المحتل، ومشاركتهم في عمليات، قُتل أو جُرح فيها إسرائيليون.

وما كان مُزاحا، أصبح غير ذلك. لقد سبقت القطة الشقراء، إبراهيم إلى بُرشه، تقودها رائحته، وجلست عليه، وكان ذلك بمثابة هدية السماء المستحيلة، لأسيرٍ مثله، لا يعرف متى سيُفرج عنه، وإذا كان فعلا سيتخطى بوابة السجن يوما.

أصبحت صديقته تشاركه الفراش، يُمسد على فروها، ويُطعمها بيديه، ويخفيها في فترات التمام، وهي ثلاث مرات يوميا، تحت

الفراش والبطانية، حتى لا يلحظها رجال الشرطة الذين يدخلون لعد الأسرى.

في الأيام التالية لم تخرج الشقراء مع إبراهيم، إلى ساحة الفُورة، خلال فترتي الفطُور والغداء، وكانت تفضل أن تظل على البُرش في انتظاره، وحدس بأنها تشعر بخطورة الخروج إلى الساحة، فينكشف أمرها، ويلقي الحُراس القبض عليها، ويرمونها خارج السجن المحكم البناء كقلعة تحيطها الرمال الصفراء.

لم يتوقع إبراهيم، أن تظل الشقراء في الغُرفة فترة طويلة، وإنما ستمل من الحشر، وتنطلق إلى الصحراء التي أتت منها، تبحث عن لحوم الحشرات والفئران والسحالي والأفاعي والعقارب، المفضلة لديها، وتمارس رياضتها في الملاحقة، والمناورة، والصيد. ستنتصر غريزة الحُرية وروائح الصحراء، ولون الرمال، على الحشر، والطعام المتوفر، وروائح الآدميين.

وتخيل كيف يمكن أن تكون المواجهة بينها وبين أفاعي صحراء النقب، التي يُضرب المثل بقدراتها الهجومية، وإمكانياتها السامة، وسمع خلال وجوده في السجن، حكايات من أسرى بدو، تشرد أهاليهم، بعد النكبة، ولكنهم أخذوا معهم أساطيرهم وحكاياتهم، التي لم يكفوا عن ذكرها لأبنائهم في أماكن اللجوء، ومن بين هذه الحكايات عن الأفعى السوداء في صحراء النقب، التي لونها وحده يمكن أن يكون مخيفا، وفوجيء لاحقا، عندما علم، من بيتر وهو أحد الأسرى الذين تلقوا تعليمهم في الخارج، واعتقل خلال عودته عبر جسر اللنبي على نهر الأُردُن، بأنها تسمى كوبرا فلسطين،

ويتذكر فرحه وفرح زملائه، لأي شيء يمكن أن يكون له علاقة باسم فلسطين، فإذا كان ناس الأرض شُردوا منها، فإن الحيوانات الباقية، تحفظ أسماء البلاد.

في أحد الأيام لاحظ إبراهيم، وهو ينظر من النافذة الصغيرة، قطا صغيرا مبلولا يكاد يحرك جسده على الرمال، فنادى على زميله علي الحلحولي، خبير البراري المحترف قبل اعتقاله، ومبتكر أساليب صيد الطيور حتى وهو في غُرفة السجن.

قال علي بدون تفكير:

ـ هذا قط ملدوغ..!

تم إخبار الشُرطي المناوب، والطلب منه استدعاء المُمرض، باعتبار وجود أفعى قريبة من جُدران السجن، يشكل خطرا على السجانين والمسجونين.

بعد أن تأكد المُمرض من وجود القط المبلول المترنح، سمح بإخراج علي من الغُرفة، واصطحبه مع حراسة إلى مكان القط، بينما تزاحم الأسرى على النوافذ الصغيرة. انحنى علي، فرأى ثلاثة ثُقُوب في الرمال، فأخذ بشمها، ووقف مشيرا إلى ثقب:

ـ الأفعى هنا..!

وطلب مجرفة، وبدأ بجرف الرمال، فظهرت الأفعى السوداء.تطل برأسها، فالتقطها بسرعة، بيدٍ مدربة، ضاغطا على رقبتها، ثم تخلص منها، بطلب من المُمرض، الذي أراد أن يتم الأمر سريعا، قبل أن يصل الخبر للجهات البيئية المختصة، التي ستُعقد الأمور، بدعوى حماية البيئة، والحفاظ على مكوناتها.

ولم تكن الأفعى الفتاكة، بالنسبة لعلي، بحاجة إلى أكثر من الضغط بقوةٍ على رقبتها وتحريكها بقوة، ثم طرحها أرضا، وتهشيم رأسها بقدمه.

ستثير دُربة علي، على التعامل مع الأفعى، اهتمام الأسرى، والسجانين، وأول شخص عبر عن ذلك الاهتمام، هو المُمرض الذي يضع كيباه (طاقية صغيرة) على رأسه، على عادة المتدينين اليهود، ويظهر حجم الكيباه مدى علاقة مرتديها بالرب، الذي لا يتوجب ذكر اسمه، بالنسبة للحريديم اليهود ورأس الشخص مكشوفا.

سأل المُمرض، عليا، بينما تتدلى الأفعى من يده، مزهوا بقتلها:

ـ كيف عرفت مكانها؟ لا بد أنك ساحر..!

على الأرجح فإن عليا، احتاج إلى هذا الاعتراف المبكر والسريع بدُربته، فقال محاولا إخفاء مشاعره:

ـ الأمر عادي، للأفعى رائحة، ولكل سوام، وسوائم، ولكل حجر وبشر ونبات وحيوان، لكل مخلوق رائحة، المهم أن يكون لدينا القدرة على التمييز بين الروائح، الروائح الطيبة، وتلك الخبيثة، بين المفيدة، والقاتلة..!

ـ برافو...برافو..!

ـ أتعرف يا حوفيش (ممرض)؟ أستطيع الآن أن أشمك، وأعرف كنهك، وما هي مشاعرك، وبماذا تفكر..؟

ـ آه..لا أظن ذلك..هههههه لأ بلاش تشمني يا خبيبي..وتفضح أمري..أنتم في هذا الشرق سحرة، وشمامو روائح، وأصحاب أمزجة حادة..تعرفون كُل شيء عن العوالم المرئية وغير المرئية،

ولكنكم لا تعرفون شيئا عن أنفسكم..!

- هههههه...ذهبت بعيدا يا حوفيش..!

- هل تستطيع أن تقول لي إذا كنت قادرا على شم نفسك، أم تحتاج لأحد أن يشمك؟

- لم أُجرب شم نفسي، ولكن عندما أغادر هذا السجن، رُبما سأتزوج، ورُبما سيأتيني أبناء، ورُبما فكرت في أن أنقل مهارتي لواحدٍ منهم، وأطلب منه أن يشمني..!

أراد الممرض، ان يستعرض بعض معارفه أمام علي، يريد أن يحافظ على المسافة غير المتكافئة بين السجين، والسجان، فقال بأن بعض القبائل السودانية، لديها القدرة على اكتشاف الأفاعي، بطريقة أكثر عملية وسلامة من الشم، فأفرادها اكتشفوا، عود الحية، وجابوا الصحاري، ليجمعوه، وعندما يضع أحدهم طرف هذا العود في جحر أفعى، فانها تخرج مسرعة، وكأنها تستجيب لنداء غامض، ويمكن لصاحب العود، أن يجمع ما يريد من أفاع بيده، دون أن تتمكن أية أفعى مهما كانت قدرتها على تسميم الخصم، من إيذائه، في تلك البلاد يسمون عود الحية أيضا، عود الكوكو، لانه ينبت في أرض تسمى، أرض كوكو، ومن يعلقه في رقبته فإن الأفاعى تهرب منه، وكأن العود أسود اللون، حرز، وحجاب.

الأسير المختص بالثدييات بيتر فارس، أكد أن الأفعى التي أمسكها علي هي كوبرا فلسطين، وقدم تفاصيل عن الكوبرا السوداء، ودرجة سُميتها العالية، وعن حيوانات فلسطينية أخرى، وتحدث عن الصراع مع الاحتلال، للاستحواذ على أسماء الحيوانات

والنباتات، فكوبرا فلسطين، سجلها العلماء الذين كانوا يفدون إلى البلاد، قبل تأسيس دولة إسرائيل بسنوات طويلة، باسم البلاد، ونسبوا الكثير من حيواناتها، ونباتاتها إليها، ولكن الأمر بالنسبة للإسرائيليين، سيتغير بالطبع، وسيحاولون دائما، تغيير الأسماء التي أُطلقت قبل احتلالهم، فكوبرا فلسطين، اسم سيحاولون أن يرسخوه باسم كوبرا إسرائيل، والأمر أيضا ينطبق على عقرب فلسطين الكبير، وغزال الجبل الفلسطيني، وعصفور الشمس الفلسطيني.

هذا المجال، الذي يجب على الفلسطينيين أن يخوضوا نضالا من أجله، حسب الأسير المختص، لم يكن معروفا لإبراهيم البسة ولرفاقه، الذي ما أن شب، وفي وعيه كُل مرارات الهزائم والنكبات والنكسات، حتى غادر المنزل المؤقت في مُخيم اللاجئين المؤقت في بلد اللجوء المؤقت، إلى مواقع الفدائيين في غور الأُردُن، وكل حُلمه أن يعود، مع الثوار محررين للأرض.

جرى نقاش حول الدُربة التي تختزنها القطط، وتمكنها من الفوز في المعارك غير المفهومة مع الأفاعي، التي لا تُعتبر طعاما للقطط القاتلة، التي تبدو بأنها تمارس غريزة قتل قديمة، لا نعرف عنها الكثير، تُشكل الأفاعي فيها نقطة محورية، رُبما كان صراعا قديما على النفوذ، وعلى التملك، ومساحات أرضية، ولكن يبدو أن كوبرا فلسطين تغلبت على قط الصحراء الصغير هذا، الذي قادته غريزته لخوض معركة لم يكن يدري بأنها لن تكون متكافئة.

أكد عدد من الأسرى الذين خبروا البراري في سنوات الطفولة،

بأن الأفاعي ذكية، ولها قدرة على معرفة ما يضمره الخصم، ورووا حكايات عن أفاعي شاركت أهاليهم منازلهم الطينية، والمغارات التي تأوي إليها الأغنام، ولم تؤذ أيا منهم. وكان لإبراهيم البسة حكاية مشابهة عن ذكاء الأفاعي، عندما تدلت أفعى من سقف البوص، بينما كان مناوبا، ممتشقا سلاحه، حارسا لرفاقه الفدائيين، لم يشأ إطلاق النار عليها، فيستيقظ رفاقه فزعين، معتقدين، بأن هجوما إسرائيليا استهدفهم. حمل عصا وعمدها ليقتلها، ولكنها حاولت الهرب، ولم تجد منفذا، أصابها بعيدا عن الرأس، فسبحت بعيدا، وتسلقت زير الماء بجانب باب المغارة، ونفثت سمها داخله، وكان ذلك انتقامها الأخير، وهي تعلم بأن إبراهيم سيلحقها ضربة قاتلة على الرأس. وتشجع، وسلخ جلدها، وأوقد نارا، لشيها. صيد الأفاعي كان جزءا من التدريبات التي يتلقاها الفدائيون في غور الأُردُن، ولكل فدائي خاض تجربة صيد وشي أفعى حكايته الخاصة عن تلك التجربة، وعن طعم اللحم الذي شبهه كثيرون منهم بلحم السمك.

يتطوع علي، الذي سيصبح اسمه علي كوبرا، لفك ألغاز حكاية إبراهيم مع أفعى الأغوار، بعد أن يسأل أسئلة دقيقة، عن أوصاف الأفعى، وطولها، وتدرجات لونها. وستترسخ سمعته بين الأسرى كرجل براري لا يُنازع.

وعندما أوى علي للنوم، في نهاية يوم حافل، حلم بعود الكوكو الأسود، يعلقه في عنقه، ويطارد حرا في البراري، يمسك الأفاعي، ويلهو معها.

ولاحقا، قرأ شيئا عن حكاية عود الكوكو، في كتاب الإدريسي،

الذي عثر عليه في مكتبة السجن، وترصد اللحظة، التي يمكن أن يلتقي فيها الحوفيش، الذي نقل إلى سجن آخر، وتوالى على سجن بئر السبع حوفيشات كثر غيره، ليصدمه بأن معلوماته ذكرها أولا وقبل قرون جغرافي عربي، ولكن تلك اللحظة لم تأت أبدا.

٣

بعد نحو أسبوعين، ومع ترسخ أساليب التواصل بين إبراهيم والشقراء، بتحسسه لجسدها، وفهم نبرات صوتها، وتقدير حركة ذيلها، وإغماض عينيها، وتحريك شاربيها، وقبض حاجبيها، وإرخائهما، حدس بأن تفضيلها البقاء في الغُرفة، قد يكون له علاقة باتخاذها قرارا بأن تكون الغُرفة مأوى لها، ولأطفالها الذين سيأتون، فبطنها المنتفخ، ونبرات تهميرها المتغيرة وهو يُمسد بيده على جسدها، والثقة المنبعثة من عينيها، واسترخاء ذيلها وتدليه، وكأنه عطل جميع أجهزة الاستشعار لديها، تاركة الأذن يقظة لتسمع ما يقوله إبراهيم، وتُصدق عليه بإغماض عينيها وفتحهما برضى، كل ذلك جعله يتلقى رسالتها.

الآن على إبراهيم، وزملاء الغُرفة، أن يستعدوا جيدا، مثلما تستعد الشقراء، للحدث السعيد، وأن يُظهروا أفضل ما لديهم من شيمٍ، عندما يحتاج ضيف إلى مساعدة، كحال الشقراء التي تركت عالما رحبا، ولجأت إليهم.

وصلت التبرعات مُبكرا، صندوق من الكرتون، وبقايا أقمشة،

لتوفير مكان دافيء للشقراء، التي انتقلت من البُرش إلى الصندوق، وأخذت بتحضير منزلها وترك بصماتها الخاصة عليه في انتظار الآتين. تُعرفه بأنفاسها، وتحكه بجسدها، وتترك شيئا من فروها على جدرانه الرقيقة.

يشعر الأسرى، في سجن بئر السبع، بالبرد يخترق عظامهم ليلا في مثل هذا الوقت من العام، وتعاطفوا مع الشقراء وأشفقوا على أولادها الذين سيأتون وسيعانون من برد الصحراء، إلا أنهم أرادوا أن يُصدقوا ما قاله أحدهم بعلمٍ، بأنها قادرة بأنفاسها، وجسدها، وفرائها، على تحدي كُل أنواع البرد وحماية الآتين إلى دُنيا جديدة، الذين لن يعرفوا بأنهم ولدوا في سجن، وبأن الدنيا، هي غير الدنيا خارجه. على الأقل في الأسابيع الأُولى، قبل أن تُناديهم الصحراء، ليختبروا كيف يعيشون أحرارا.

هل سيستمعون إلى صوت الصحراء في دواخلهم، ويلبون النداء؟ هل سيستطيعون التخلص من تراث طويل من التدجين، والتمتع بطعامٍ سهل الحصول عليه، والذهاب إلى حيث يجب الذهاب، إلى براري الصيد والغرائز والحُرية؟ هل سيعرفون أنهم في سجنٍ، وأن مكانهم ليس هنا؟ وأنه ليس بالجبن والخبز وقطع اللحم، تحيا القطط؟

في الوقت الموعود، لم ينم إبراهيم البسة، وشاركه السهاد والانتظار، زملاء البُروش القريبة، والبعيدة من المهتمين والفضوليين والقلقين، وهم ينظرون إلى الشقراء، التي أبدت صبرا تجاه العيون التي تنظر إليها وتكاد تحاصرها، وهي تتلصص على أدق

خصوصيتها، مستعجلين قذفها لأولادها، ومع ساعات الصباح الأُولى، وبعد العودة من تناول الفطُور في ساحة الفُورة، كانت الشقراء قد أكملت مهمتها لوحدها، وكأنها أجلت الولادة، حتى تكون بمفردها.

عاد إبراهيم,وزملاؤه، وقد أخفوا في جيوبهم، ما تمكنوا من اختصاره من فطورهم، لتغذية الأم الوليدة، التي ستحتاج أكثر من أي وقتٍ مضى للتغذية.

خشي إبراهيم، من عدم قدرته وزملائه، على تقديم الغذاء المناسب لأمٍ تُرضع أطفالها، وجاء علي كوبرا بالحل، وهو الذي انشغل في الأيام الماضية، بوضع فُتات من الخُبز على شبك نوافذ الغُرفة، بعد تقطيع أجزاء علوية منه، وتثبيت الفُتات على ما ظهر من أسلاك الشبك الصغيرة المدببة، وكان يعلم بأن العصافير ستعرف طريقها إلى الخُبز لتلتقطه، دون أن تعلم بأنه سيلتقطها أخيرا، وبعد أن تشعر بالأمان، يسحب خيطا رفيعاً لتقع في شباكه الصغيرة الدقيقة التي صنعها، للإيقاع بالعصافير المسكينة، التي ستصبح غذاء شهيا، غير متوقع للشقراء، لم تكن لتحلم به.

تولى إبراهيم طبخ العصافير، قبل تقديمها للقطة المدللة، وإنضاجها بالبخار، بوضعها في عُلبة حديدية، وإشعال فتيلة من خيوط بطانية، بقدح حديدتين عليها فتائل رقيقة، وكل ذلك بعيدا عن أعين شُرطة السجن التي تمنع الكبريت وإشعال النار، وأشياء أخرى كثيرة عن الأسرى. يتولى الشُرطي المناوب، إشعال سيجارة لأسير من خلال قضبان الباب الحديدية، وبدوره يشعل سجائر

لزملائه المدخنين منها، ولكن الأسرى، اهتدوا إلى إشعال النار، من خلال الطريقة البدائية بالقدح، وأبقوها سرية.

جرى نقاش بين الأسرى في الغُرفة، حول أخلاقية صيد العصافير، وتقديمها للشقراء، وبدلا من تركها حُرة، تُستدرج لتموت وتُطبخ في السجن، من قبل الذين يفترض أنهم يُقدسون الحُرية.

دافع علي كوبرا عن ما فعله، مشيرا إلى أن عدم تغذية الشقراء، رُبما يدفعها لأكل أطفالها، ورد آخرون مصححين بأن القطة لا تأكل أبناءها، إلا إذا شعرت بخطورة عليهم، فتعيدهم لبطنها، كي تشعرهم بالأمان، دون أن تدري بأنها تريحهم من الدنيا وتختصر عليهم ما سيواجهونه فيها.

بالنسبة للعصافير، والقطة، كان الأسرى، في موقف قوة يجعلهم يحددون حدود التصرفات الأخلاقية، وما يحل قتله، وأكله، ومع ذلك هناك من أبدى رفضا قويا لصيد العصافير:

ـ تخيلوا لو أننا نعيش في عصر الأغنام، وهي التي ستقرر إن كانت ستتغذى على الجنس البشري، الأقل منها قوة، كيف ستكون وجهة نظرنا كمنتمين لجنس أضعف؟

ـ سنحاول المقاومة، كما نقاوم الآن الاحتلال..!

ـ ربما لجأنا إلى الخنوع، كما تفعل الأغنام الآن، ونعيش حالة أمان كاذب حتى موعد الذبح.

ـ أو ربما انتظرنا ما ستقوله السماء بشأن الذبح الحلال.

ـ وإذا لم تنصفنا السماء، وحللت ذبحنا؟

تدخل بيتر ليقول:

ـ عندما نذبح الأغنام، فإننا قبل ذلك نعمل على إكثارها وتربيتها، وبهذا نحافظ على جنسها، ربما عليها أن تشكرنا لأن مصيرها لم يكن كغيرها مثل الديناصورات، تخيلو لو أن الديناصورات وجدت من يأكلها لعاشت حتى يوم سجننا هذا، ولربما رأيناها من نوافذ السجن الضيقة تمرح من حولنا في هذه الصحراء.

وأضاف بيتر:

ـ لا يجب عليكم الاحساس بتأنيب ضمير، نحن بالمصادفة أصبحنا الأقوى، وربما لو كان حظ النمل ان يكون بحجم الأغنام، لفني الجنس البشري خلال فترة وجيزة، إنها المصادفات القدرية يا إخوان ويا رفاق، لا تنغصوا على الشقراء المسكينة..!

٤

لم يعد وجود الشقراء وأطفالها في الغُرفة، مخفيا عن عيون شُرطة السجن، وتطلب النظر في وجودها العودة إلى مُدير السجن.

حضر مُدير السجن آشر، الذي حاول خلال خدمته، أن يظهر كشخصٍ مهني أمام الأسرى، وليس كموظفٍ استعماري، مناط به التضييق على الأسرى السياسيين، الذين وُجودوا هنا، لنضالهم ضد الاحتلال، وراكموا خبرات، وتمكنوا من تنظيم أوضاعهم الحياتية، وتحقيق مكاسب دفعوا ثمنها، شهداء وجرحى، وطوروا أنفسهم ثقافيا وتعليميا.

وفي أكثر من مرة، قال لمندوبي الأسرى، عندما كانوا يعرضون عليه مطالبهم، بأن عليهم إبعاد السياسة، وكل ما له علاقة بها عن

احتجاجاتهم ومطالبهم، وبأنه في موقعه، يبذل كُل جهد ممكن، وضمن القوانين المتاحة، لتوفير ما يحتاجونه، وبأنه سيحترم الأسرى، طالما ظلوا بعيدا عن أحداث الشغب، وتجنبوا القلاقل، وإن تنفيذ المطالب يأتي تدريجيا، وليس كُل شيء أو لا شيء، وكان يحلو إليه، أن يعطي مثلا بمؤسس دولة إسرائيل بن جوريون، المدفون في النقب، الذي حقق حُلمه عن طريق المراحل، وكان شعاره الاستيلاء على متر أرض فمتر، ودونم، فدونم، ويشوف (مُستعمرة)، فيشوف، وعنزة، فعنزة، وأسس إسرائيل على الجزء المتاح عام ١٩٤٨، والتي استكملت عام ١٩٦٧، بينما العرب كانوا يجعرون دائما بالرفض، وكل شيء، أو لا شيء، فأصبحوا بلا دولة، ولا وطن، ولا أرض.

ولم يكن يترك فرصة، إلا ويظهر فيها بمظهر الحكيم الناصح، مُذكرا الأسرى، بما يسميه خطايا القيادات الفلسطينية التي كانت تقول دائما لا، وجرت شعبها لأن يصبح شعبا لاجئا مشتتا فقيرا.

وكان يفخر بأنه واحدٌ من الذين يعود لهم الفضل، في إجراء حوارات بين أسرى وكُتاب إسرائيليين معظمهم من اليساريين، محملا قادة الأسرى إفشالها، بدعوى أنها تستهدف حسهم الوطني والأمني.

هذا الكلام، بالنسبة للسجناء، لم يكن فقط غير مقنع، وإنما كانوا ينظرون إليه، كنوعٍ من توزيع المهام بين رجالات سُلطة الاحتلال، وهم يعلمون، بأن من يتحكم في السجن، ولهم الكلمة الأُولى، هم رجال المخابرات (الشاباك)، وأن مُدير السجن، رغم أنه في الواجهة أمامهم، إلا أنه في النهاية ينفذ الأوامر، وأن رقم واحد

في السجن هو الذي يشغل وظيفة مسؤول الأمن، وهو في الحقيقة ضابط في الشاباك، ويعلم ذلك الجميع، من أسرى وسجانين، إضافة إلى ذلك فإنهم خبروا تصرفات آشر هذا في مواقفٍ عديدة، وبالنسبة لهم، هو واحد من جلاوزة القمع والتدجين، المناط بهم تحطيم الأسرى نفسيا، والأساليب مختلفة: عصا وجزرة، وعصا بدون جزرة. آشر بالنسبة لهم ممثل سُلطة الاحتلال، هو رمز، وأداة، ويمكن أن يُجسد هذا القصير الممتلىء، المحاط وسطه بحزام ونتوءات دهون، كُل شرور الدنيا.

دخل مُدير السجن إلى الغُرفة، بعد أن فتح الشُرطي المناوب الباب الحديدي، مُحدثا ضجيجا كالعادة، يحيط به عددٌ من مساعديه، ورجال شُرطة، ولم يكن بحاجة لأن يسأل أحدا، عن مكان الشقراء. استدل لوحده إلى مكانها، بجانب بُرش إبراهيم البسة، وطلب منه إخراجها. رفض إبراهيم الطلب وهو ينظر للقطة التي ثنت قائمتيها الخلفيتين وأصبحت في حالة استعداد للهجوم.

قال آشر:

ـ وجود القطة في الغُرفة ممنوع، ألا تعرف ذلك؟

ـ نعم أعرف ذلك، ولكنني لن أطردها من الغُرفة.

ـ وجود القطة مخالف للقوانين، وإسباغك حماية عليها، يعرضك للمساءلة. أطلب منك بهدوء واحترام، إخراجها.

ـ لن أخرجها، إذا أردت أنت أن تخرجها، فافعل وتحمل وزر تشريدها مع أبنائها، أنت حُر..!

تراجع المُدير، وعلى الأغلب لم يرغب بإثارة ضجة حول قطة،

تمكث في السجن بشكل غير قانوني، وطلب من أحد رجال الشرطة إخراجها.

وبينما كان الأسرى، والمدير، وشرطته، يجدون أنفسهم في إحدى لحظات السجن الغريبة، يتباحثون حول قطة، تقدم الشُرطي المأمور، نحو مسكن القطة، ولكنه تراجع بسرعة، عندما أظهرت له الشقراء غضبها، بينما اتزن ذيلها منتصبا إلى أعلى، ونفخت أنفاسها باتجاهه، وتمددت مقلتا عينيها، متحولة إلى نمرة قادرة على الإيذاء، فاستشعر الجميع الخطر الذي يمكن أن تُحدثه دفاعا عنها وعن أبنائها.

تصرف المُدير بعقلانية، كما ذكر ذلك لاحقا، فلم يتأذ أحد من الشرطة، أو من السُجناء، كما وصف الأمر، عندما كان يلتقي مندوبي الأسرى، للاستماع لمطالبهم، وخرج مع رجاله، مهزوما، كما أصبح الأسرى يتداولون فيما بينهم، وكانوا على ثقةٍ، وهم أصحاب تراث في مواجهة إدارة السجن، بأن الشقراء، استمدت العزيمة منهم، في سجنها الاختياري.

٥

لم يُسلم المُدير بالهزيمة أمام القطة، وطلب مقابلة ممثل الأسرى في مكتبه، وعندما دخل، كان بتلر الأسود الذي ينظف غرفة آشر، يمسح المكتب. يتحدث بتلر عبرية مكسرة، مغرق في التهميش، ومصاب بسهوم مزمن، ودائم الدندنة بأغاني غير مفهومة، وكان يثير فضول الأسرى، وسخرية رجال الشرطة. بالنسبة للأسرى فهو

اليهودي الأسود الوحيد الذي يعرفونه، وهذا ما جعلهم يبحثون، ويجمعون نتفا عنه، من خلال القراءة، ومتابعة الصحف، وسؤاله عندما يتاح لأحدهم ذلك، بالإضافة لما توفر من معلومات من المساجين اليهود الجنائيين.

واختلفت نتف الأسرى عنه، وتقاطعت، ولكنهم اتفقوا، على أنه ينتمي إلى طائفة يهُودية مهمشة في إسرائيل، يُطلق عليها اسم (الإسرائيليون العبرانيون) أو (الأفارقة المقدسيون)- نسبة لمدينة القُدس، وهي طائفة تلفها الأسرار ولا تعترف الدولة بيهودية أفرادها، بل تمارس القمع ضدهم.

يعيش بتلر في بلدة ديمونا في النقب، المشهورة بالمفاعل النووي الإسرائيلي الموجود فيها، في مخيم مبني من الصفيح، وبدون خدمات، مع أبناء طائفته الذين يأتون من شيكاغو الأمريكية للبلاد، ولكنهم لا يعودون إلى بلدهم، وإنما يمكثون هنا بشكل غير قانوني، برعاية رئيس الطائفة، ولديهم اعتقاد راسخ بأنهم من سُلالة أحد أسباط اليهود الاثني عشر، التي تاهت في غرب إفريقيا بعد سقوط مملكة إسرائيل القديمة، وفقا للرواية اليهودية المتواترة.

يرتدي بتلر ملابس غريبة، ويظهر خصوصا بجلبابه الملون، وغطاء الرأس المتغير بين وقت وآخر. يشير آشر، في أية مناسبة سانحة، أنه وفر له هذا العمل، شفقة عليه.

صرف آشر، بتلر، ونهض عن مكتبه، وطلب من شاهين بأدبٍ مبالغ فيه، الجلوس، وسأله ماذا يُحب أن يشرب؟

ممثل الأسرى شاهين، أسير مُجرب، ومُطلع على أساليب إدارات

السجون، والمحققين، ورجال الشاباك، ويرفض الوقوع في فخ الانقياد، فموافقته على احتساء قهوة أو شاي، بداية الانقياد لطرف العدو الأقوى، معسول اللسان، وليس أخطر من الوقوع في مثل هذا الفخ بالنسبة للأسير السياسي، الذي يسعى دائما لتسجيل نقاط انتصار في حلبة الخصم الذي يملك القُوة والسجن، ويسعى للتمكن من إرادة الأسير. في صراع الإرادات يحرص الأسير على تسجيل نصر، يعني له ولرفاقه الكثير.

رفض شاهين، كما توقع المُدير، شرب أي شيء، فأبلغه الأخير، بأكثر الكلمات لطفا، ولكن بحزم، بأن عليه إقناع إبراهيم البسة، بإخراج الشقراء من غرفته، لأن المسألة ببساطة، أن وجود القطة في الغُرفة، مخالف للقانون، وتنفيذ القانون مناط به كمديرٍ للسجن، وأنه يريد تجنب المشاكل، التي ستؤدي إلى توتر ومزيدٍ من التوتر، وهو ما يحرص على تجنبه.

وقال المُدير، إنه سيتجاهل، أن إبراهيم متورطٌ في مخالفة القانون، ولن يعاقبه، بوضعه في إكس أو زنزانة انفرادية، أو منعه من الزيارة، أو الخروج إلى ساحة الفُورة، لأنه يتفهم الوضع الإنساني للقطة مطلقا ضحكة.

"الرحمة فوق القانون"، قال آشر، مضيفا: "ولكن ليس إلى ما لا نهاية". وعرج كعادته، إلى ما وصفها الامتيازات التي ينعم بها الأسرى في هذا السجن، الذي يعتبره سجنا حديثا، بنته حكومة إسرائيل عام ١٩٧٠، في عاصمة النقب، ليكون سجنا نموذجيا، وأنشأت قسم (أ)، وهو عبارة عن أربع غُرف مساحة الغُرفة الواحدة

منها تبلغ ٣٢م* 8 م، وداخل كُل غُرفة يوجد قسم للحمامات، وقسم لدورات المياه، في داخل كُل غُرفة أربع حمامات، وأربع دورات مياه، إضافة إلى مغسلة تحتوي على مجموعة من صنابير المياه، وهو ما لا يتوافر في أي سجن آخر. ولاحقا بُنيت أقسام أخرى، ومنها ما يشغلها سُجناء الحق العام من الإسرائيليين، وأكبر دليل على تحقيق العدالة في السجن، المزايا التي يحظى بها الأسرى، مثل عمل بعضهم في المطبخ، وعدم اقتصار ذلك على السجناء الإسرائيليين، أو المدنيين الفلسطينيين كما في السجون الأخرى، والحُرية الممنوحة لهم بتبادل الزيارات بين الغُرف، بإذن مسبق، وعدم تقييد حركة الأسرى الذين يعملون خارج الغُرف، في المطبخ، أو الغسيل، أو النظافة، وفي أمور أخرى، وكلها مفيدة، كما أكد آشر، لجميع الأسرى، ومجتمعهم، واتصالاتهم، وتفاعلهم مع بعضهم.

حاول شاهين أن يقاطع آشر، ويبلغه بأن ما يعتبرها امتيازات، هي في الواقع انجازات حققها الأسرى، نتيجة نضالهم، وما قدموه من تضحيات من أجلها، خلال الإضرابات عن الطعام، والتي ارتقى خلالها شهداء، ويعاني الكثير من الأسرى من تبعاتها الصحية على أجسادهم.

ولكن آشر الذي أدرك نية شاهين في أخذ الحديث إلى مجرى اتهامي، ويعلم ماذا سيقول، عندما لاحظه يتحفز لرفع نبرة صوته، واصل الحديث، ولكن بصوتٍ أخفض، ملمحا إلى قدرته على إجراء تنقلات للأسرى، وهو يعلم أن هذا ما لا يحبونه، إلى سجون أخرى، ما دام أن الوضع لديه غير مريح، ولكنه أكد أنه لا يلجأ إلى عقوبات

جماعية، مرددا: "كُل شاة معلقة بعرقوبها". يعلم شاهين، بصلاحيات آشر المحدودة في إجراء تنقلات للأسرى من هذا السجن المخصص لذوي الأحكام العالية، وتم وضعهم فيه فيما يشبه العزل عن باقي الأسرى، الأقل محكومية، ويعانون، ظروفا أصعب في السجون الأخرى.

يستخدم آشر الكثير من الأمثال العربية، ليؤكد سمعته بين الأسرى باعتباره "يهودي ابن عرب"، يفهم احتياجاتهم، ورغباتهم، وعاداتهم، وقادر في الوقت ذاته، على التحكم بها، وبهم.

ممثل الأسرى، رفض ما وصفها تهديدات المُدير، وقال إن إبراهيم البسة ليس له علاقة بإدخال الشقراء إلى الغُرفة، وإن على المُدير، إذا رغب، أن يجري تحقيقا، في كيفية تسللها إلى السجن، رغم الحراسة المشددة، وإن عليه أن يُحاسب، إذا أراد أن يُحاسب، رجاله، وليس إبراهيم ورفاقه، الذين اعتنوا بالوافدة الجديدة، ووفروا لها مستلزمات الإقامة، من حاجياتهم القليلة.

وأكد شاهين، أنهم يعتبرون أنفسهم أسرى حرب، ويجب أن يتمتعوا بحقوق الأسرى وفقا لاتفاقيات جنيف، وهذا ليس منة من حكومة الاحتلال، وإنما واجب تحتمه القوانين والأعراف المعمول بها في الدول المتمدنة، إلا أن آشر وحكومته لا يعترفون بالقوانين الدولية، ولا يجدون لذة مثل خرقها، ويتعاملون مع الأسرى، كمجرمي حرب.

انتهى اللقاء، بصراخ آشر، بأن الأسرى لا يُقدرون وجود شخص مثله يعامل الأسرى كبشرٍ، ويتجنب إحداث المشاكل،

وتحريك قوات القمع، وإن ترك القطة دخل الغُرفة، دليل على نواياه غير العدوانية تجاه الأسرى.

٦

فقط بالصراخ يستطيع آشر، التغلب على شاهين الواثق من نفسه، ولن ينسى الاثنان، ما حدث عندما استدعى آشر، شاهين على الفور، ليحضر إلى الساحة في قسم سُجناء الحق العام الإسرائيليين، ليرى أحدهم وقد لف حبلا على عُنُقه، وربطه في ماسورة المجاري الاسبستية، بعد تسلقها، ووصوله للطابق الثاني ويهدد بالقفز من علٍ، إن لم يحقق آشر مطلبه.

وعد آشر بتحقيق مطلب السجين، ولكن هذا لم يثق بآشر، وطلب حضور شاهين، ليكفل آشر، ويتراجع عن نيته الانتحار، إن أكد شاهين له بأن مطلبه سيتحقق فعلا.

آشر الغاضب، وضابط الأمن، والقوات الخاصة، انتشرت في المكان، بأعصابٍ مشدودة، ولم يؤد التفاوض مع السجين إلى نتيجة. لم يفلح آشر كمفاوض.

قال آشر المرتبك لشاهين:

- يريد استعجال إجازة خروجه من السجن، يبدو أنه اشتاق لعاهرته، قل له إنني مستعد لترتيب زيارة خاصة لصديقته في مكتبي إن أراد، على أن يخرج في الإجازة السنوية المعتادة في موعدها..!

شاهين الذي وجد نفسه يتفاوض من أجل سجين يهودي، وهو

أخر ما توقعه، قال لآشر، بينما السجين ينتظر من سجين عربي الكلمة الفاصلة بين الحياة والموت:

- لا أريد أن تخدعه وتخدعني، وأنت تعلم كيف نحن العرب عندما نضع وجهنا على أمر، نتحمل أخلاقيا تبعاته..!

- يا شاهين بك، لا أريد أن أخدع أحدا، المهم قل للمجنون أي شيء حتى لا يرسل نفسه إلى داهية..! ولعلك قرأت مقولة دستويفسكي: "إن مقياس حضارة أُمة من الأمم هو كيفية معاملتها لسجنائها"، ونحن لا ندخر جهدا من أجل تمتيع هؤلاء المجانين القتلة الأوغاد..!

بعد أن أبدى شاهين ملاحظة، حول عنصرية الاحتلال الذي يفرق في المعاملة بين سجين إسرائيلي وآخر فلسطيني، لم يقبل برد آشر الذي اعتبره مرسلا، للتخلص من الموقف، وطلب وعدا منه بتنفيذ ما وعد به، ووافق آشر، وحلف بأبيه، وأولاده بأنه لا يناور، وسيجمع السجين بما وصفها بالحمارة التي يمكن أن تحب حمارا حشاشا، ابن ليل نتنا مثل هذا.

خاطب شاهين، السجين، بثقة وبزهو، بأن آشر، سيجمعه بصديقته أكثر من مرة، ولوقتٍ طويل، وسيسعى ضمن صلاحياته، ووفق القانون، لتقريب موعد الإجازة السنوية.

فك السجين الأُنشُوطة عن رقبته ونزل وصافح شاهين، الذي طلب منه آمرا مصافحة آشر، وبدا الجميع راضين بالاتفاق، وزها شاهين، بسمعته التفاوضية الحسنة، واعتبرها نتاج صلابته وسلوكه الثوري الذي لا يساوم.

علاقة السجناء اليهود، بالأسرى الفلسطينيين، في سجن بئر السبع، فيها الكثير من التقدير من قبل مخترقي النظام اليهود، تجاه المناضلين الفلسطينيين، رغم عدم اختلاطهما المباشر، وإعجاب من المجموعة الأولى بتنظيم الأسرى الفلسطينيين لحياتهم الداخلية، وانضباطهم، وربُما الأهم الإعجاب بهؤلاء الذين تحملوا كل ذلك المقدار من التعذيب، وظلوا صامدين، مرسخين مفاهيم الذكورة الطاغية، والرجولة التي لا تُخدش.

دعا آشر، شاهين، إلى مكتبه، وعندما رأى آشر، بتلر يُنظف ويرتب، طلب منه الخروج، والوقوف خلف الباب، استعدادا لتلقي أوامره إن احتاج إليه.

قال آشر وهو يبتسم:

ـ ما حظي به من عمل، تمناه زعيمهم عندما كان مهمشا في أمريكا..!

يعلم شاهين، بأنه يقصد بن عامي، الذي كان عامل حديد وصلب في شيكاغو، عندما أعلن بأن الملاك جبريل ظهر له في رؤيا، وطلب منه تجميع أبناء شعبه من الأمريكيين الأفارقة، والعودة بهم إلى الأرض المُقدسة، لأنهم من سبط يهوذا، الذين هاجروا إلى إفريقيا، قبل أن يُنقلوا مُسترقين إلى أمريكا.

بدأ بن عامي دعوته فور تلقيه الأمر السماوي عام ١٩٦٦م، ونجح في مُناخ النهوض الأمريكى الأفريقي، بتجميع البعض حوله، ووصلوا بعد ثلاث سنوات إلى ديمونا، ولم تعترف دولة إسرائيل بيهوديتهم، فبدأوا حياة بدائية شبه اشتراكية ولديهم عادات ترتكز

على التعددية الجنسية بين الرجال والنساء وفقا لتعليمات من بن عامي، الذي يقرر لأتباعه متى يتزوجون ومن من، وإلى أي مدى يدوم الاتصال الجنسي بين الزوجين، في حين يفضل أفراد الطائفة الإشارة إلى هذا النوع من العلاقات الجنسية بأنه نوع من تعدد الزوجات. وهذا يفسر وجود عائلات كبيرة يصل عددها أحيانا إلى عشرين فردا.

قال آشر:

- لا أعرف سر جاذبية بن عامي هذا، وكيف يحكم أتباعه بتشدد، وكيف صدقوه بأنهم أحفاد أسباط إسرائيل القديمة التي يؤكدون أنها كانت دولة للسود، وأن أنبياء اليهود كانوا من السود أيضا. هذا المزواج اللعين، أوامره مطاعة، وفرض أحكاما مُتشددة على جماعته، فلا يتناول أفرادها اللحوم ومشتقات الألبان، ويرتدون ملابس من منسوجات طبيعية، ويحرمون التدخين وشرب الخمور وتعاطي المخدرات، ويتشدد في تطبيق تعاليمه على أفرادها الذين يتناولون الطعام في مطاعم جماعية بشكل مشترك، ولديهم معهد يتعلم فيه أطفالهم الغناء التقليدي والرقص الموروث للطائفة، الذي يجهد كي يكون حلقة الوصل، لتعريفنا بجماعته وبثقافتها وتقاليدها ومبادئها.

وروى آشر كيف قابل بن عامي، عندما ذهب إلى مخيم الطائفة، كمحبٍ للاستطلاع، وكيف أن هذا قال بصوتٍ مرتفع:

- هذا يهودي أبيض آخر، انظروا بماذا يختلف عنا؟ فقط في أنه من الذين اغتصبوا حقوقنا في أرض ميعادنا، إلى درجة أن البيض

هؤلاء شقوا قناة السويس، ليفصلوا أرض إسرائيل عن إفريقيا، موطن منفانا، كي لا نعود أبد، ولكن ها نحن نعود، وسنظل هنا، سنعيش بدون كهرباء ومياه، كما يرغب الرب، يريدون إخضاعنا لاختبارات اليهودية، ولكننا نحن اليهود الحقيقيين، وهم المغتصبون لحقوقنا.

وفجأة تجمع حول آشر أولاد الطائفة المنبوذة وغير المفهومة من قبله، وهم يغنون بمزيج موسيقاهم: البلوز والسول، قال له بن عامي:

ـ نغني لأي شخص يريد أن يسمعنا حتى لو كان مثلك أبيض، لا يعترف بيهوديتنا..!

تحدث آشر عن مطالبات يهود في النقب بطرد هؤلاء (الزنُوج)

ـ ولماذا لا تطردونهم؟

سأل شاهين:

ـ أتريد أن يقال عنا إننا نطرد اليهود من أرض اليهود..؟!

ـ ولكنكم لا تعترفون بيهوديتهم؟

ـ هم يقولون عن أنفسهم يهودا، والحاخامات الخرفون عندنا لا يعترفون بهم.

وانتقل الحديث بين الاثنين، في تلك الأجواء الرطبة النادرة بينهما، إلى اليهوديات السوداوات اللواتي جعلهن بن عامي "فقاسات" كما قال آشر، لجلب أكبر عدد من الزنُوج لصحراء النقب، وفرض جماعته كأمر واقع في دولة إسرائيل "البيضاء".

لا يعرف شاهين، لماذا أصبح النقاش بينهما جديا، عندما أخذ يتحدث، مستعرضا بدون قصد ثقافته أمام آشر:

- ليس فقط جماعة بين عامي، ينظرون للنساء كفقاسات، ولكننا نحن وأنتم نراهن كذلك، باعتبار أن العامل الديموجرافي، سيكون مقررا وحاسما، في صراعنا، وبالتالي فإن رحم المرأة لدينا ولديكم، يعتبر ثروة قومية..!

- رُبما عندكم أنتم، بينما نحن بنينا مجتمعا متحضرا للمرأة فيه مكانة تتطور باستمرار، حتى أنها أصبحت رئيسة للحكومة، قادرة على اخافة كل عربكم، ولكنكم لم ترو فيها إلا امرأة وصفتها صحفكم بالحيزبون، وكأن التقدم في العمر عيبا..!

- لنتحدث بصراحة، ولنكن صادقين مع أنفسنا، لدى المجتمع الحريدي لديكم نسبة خصوبة مرتفعة، أعلى من المجتمع الفلسطيني، ويعود ذلك لأسبابٍ دينية، ولمعدل الإنجاب المرتفع في الأوساط الأكثر فقرا، ويحوز ذلك على رضى النُخب العلمانية لديكم التي يتناقض أسلوب حياتها تماما مع مسألة تكاثر الأولاد، ويقلقها أصلا زيادة عدد الحريديم، ولكنها تريد مزيدا من اليهود ليواجهوا العرب..!

- من أين أتيت بنسبك هذه؟ كأنك تتحدث عن مجتمعك..!

- لدينا في الجانب الفلسطيني، ليس من النادر الحديث من قبل النخب العلمانية بابتهاج، يعكس الهزائم غير المعترف بها، عن (القنبلة الديموجرافية) ودعوة نسائنا للإنجاب بكميات وافرة، وحظي ذلك بتبني رسمي أو شبه رسمي من قبل عرفات الذي لا يكف عن دعوة نسائنا لإنجاب دزينة من الأولاد.

- ألا يبدو ذلك غريبا على زعيمكم القومي، الذي لم يتزوج امرأة

وإنما تزوج القضية؟

- هههههه بنفس غرابة ما يحدث عند بعضكم، ألم تقرأ عن أحد طلائعي حركة استيطانكم في فلسطين، الذي اقترح أن يتزوج أعضاء منظمته (هشومير) من أربع نساء بدويات، لإنجاب الأولاد بكثرة وبسرعة، معتبرا ذلك أفضل بما لا يقاس من الاقتران بالمهاجرات اليهوديات الأوروبيات السياسيات محبات القراءة. في تلك الفترات كان يُنظر لبدو فلسطين بأنهم يمثلون أكثر من غيرهم التقاليد القديمة لبني إسرائيل..!

- هههههه هذا مخبول..!

- لديكم ولدينا مخابيل، ولكننا نحن وأنتم، لا نريد أن نعترف، بأنه قد يكون من أسوأ مظاهر الصراع الفلسطيني الإسرائيلي الدور الوظيفي لرحم المرأة، يتساوى في ذلك المُحتل والمُحتل، ومجتمعكم الرأسمالي الأكثر تطورا، ومجتمعنا الزراعي الذي دمرتموه..!

- سيكون حال شعبكم أفضل، لو تخلص من أمثالك من القيادات المتفلسفين..!

٧

غادر ممثل الأسرى غُرفة المُدير، وسُمح له بالذهاب إلى غُرفة إبراهيم البسة، بمرافقة الشُرطي المناوب، الذي فتح الباب وانتظر بجانبه.

قدم ممثل الأسرى تقدير موقف لإبراهيم ولزملائه، ملخصه بأن آشر شخص مأزوم، ويعاني من عُقدٍ، ويحاول التغطية على ضعف شخصيته، أمام عنفوان الأسرى، وصمودهم، وإرادتهم، بافتعال مُشكلة حول الشقراء، وأنه يقترح أن تبحث اللجنة النضالية التي تضم ممثلي الفصائل الوطنية في السجن، المسألة، وإذا ما كان الوضع الداخلي للسجناء، يسمح بالدخول في معركةٍ من أجل الشقراء أم لا؟ وإذا ما كانت أية معركة، في الظرف الدقيق والحساس الحالي، مفيدة لهم، أم مضرة على المستوى الاستراتيجي، والتكتيكي؟ وهل تستجيب للظرفين الموضوعي والذاتي؟ وما هي فرص تحقيق نصر مؤزر؟ وأسئلة أخرى واجبة الإجابات.

قال شاهين منتقيا كلماته مستعرضا قدراته الفكرية أمام زملائه: "آشر أسوأ ممثل لتفاهة الشر، منفذ أوامر، نكرة، موظف بيروقراطي، يفعل ما يفعله بدون تفكير، أو إحساس، أو تأنيب، غير مستعد لتحكيم العقل، النكرات مثل الجينات، التي تستخدم أجسادنا لتحافظ على بقائها، ولكنها تختلف عنها، فالجينات وهي تتكاثر، تحافظ على الأفضل منها، وتنحي الأضعف، أما ملايين النكرات التي تتحكم في حيواتنا، فهي فرحة بما هي فيه من هبلٍ، وحماقات، وإجرام، هدفها هو التكاثر، حتى يبدو أنه يحدث بدون هدف، ولكنها تواصل إنتاج نفسها، حتى وهي تظن بأنها واعية لما تفعله. آشر نكرة من نكرات، لا تقتصر على العدو، ولكنها تتسع لتضم ملايين الأبناء، والأمهات، والآباء، والزوجات، والأزواج

بالإضافة لبيروقراطية المؤسسات العامة والخاصة، ورؤساء العمل، ورؤساء الدول، والأحزاب، والمنظمات الدينية والدنيوية، حُراس فضيلة، وحُراس أوطان، وحُراس عشائر، نساء ورجال، "هتيفة" و"سحيجة" تخترق الطبقات، فيها من الأغنياء والفقراء، مهمتها تنفيذ الأوامر، الأوامر المباشرة، والأخرى، التي تفهمها، في السياقات المختلفة، في الواقع هي لا تفهم إلا منتجات السياقات".

وأضاف بنبرة مختلفة: "نحن هنا لأننا رفضنا أن نكون نكرات، أردنا أن نغير، أن نفكر خارج السائد، أن نقل لا للاحتلال، ولا للظلم، لا لقتلة الأطفال، مدمري المنازل، وسارقي وطن الغير، لنكون هنا يتحكم فينا نكرة، ولكنه لا يدرك ما لدينا من إرادة وتصميم".

تبادل أعضاء اللجنة النضالية التنسيقية، الآراء حول القضية، واتهم ممثل التنظيم الماركسي الراديكالي (تطلق عليه الأحزاب اليسارية المنافسة: اليسار الطفولي)، التنظيم الرئيس فتح، الذي عادة ما يكون ممثل الأسرى منه، إن مجرد طرح الموضوع بالشكل الذي طُرح، هو نوع من مُمالأة إدارة السجن، وخصوصا المُدير، الذي يريد أن يحقق إنجازا يفخر به، وأنه لا يجب منحه هذه الفرصة بالتضحية بالشقراء المسكينة، وأنه إذا كان مسلسل التنازلات في الخارج سيشهد انتعاشا، مع مبادرة السادات، فإن التمسك بالشقراء وعدم بيع قضيتها للإدارة، موقف سيسجله التاريخ للأسرى. ممثل التيار الماركسي الواقعي، الذي تنعته أحزاب اليسار الأخرى، باليسار الانتهازي، أكد بأنه لا يجب إعطاء الإدارة، أي إنجاز بشكل مجاني، وإذا ما كان المُدير يريد الشقراء، فعليه

دفع الثمن، بتقديم تنازلات للسجناء، وتحسين شروط حياتهم اليومية، وقائمة مطالب الأسرى طويلة، وحذر من أصحاب الجملة الثورية، ومرض الطفولة اليساري، والمغامرين الذين يبنون مواقفهم، بدون أخذ الوقائع الصلدة بعين الاعتبار، مؤكدا على أهمية طرح مواقف واقعية قابلة للتحقيق، وليس شعارات ثورية، تدغدغ العواطف، ولكن من الصعب اختبار صحتها على أرض الواقع.

تنقلت الرسائل بين غُرف السجن، مُهربة، عن طريق الأسرى، الذين يعملون في الخارج، في التنظيف، والترميم، والتصليحات، والذاهبين إلى العيادات، واستخدمت الكبسولات، التي تُكتب بخطٍ رفيع جدا، وتُحوصل، وتبتلع، في إبلاغ قيادة الأسرى في السجون، بما يحدث أو يتوقع حدوثه في سجن بئر السبع، وتُنقل الكبسولات عبر بُوسطات السجن التي تحمل الأسرى الذاهبين إلى المحاكم أو المشافي، ويمكثون في غُرف خاصة في السجون الأخرى، تسمى الواحدة منها (المعبار). وتُخرج الكبسُولة بعد قضاء الأسير لحاجته، وتُؤخذ وتُغسل، وتُقرأ.

وتساءل الأسرى في جلساتهم الثقافية والحزبية، عن سبب ما وصفوه تشنج آشر، وهل إذا كان ذلك جبل جليد يخفي تحته سياسات جديدة لاستهدافهم؟ أم مجرد اختبار لردة فعلهم لتقدير صلابتهم؟ ومعرفة إذا كانت سنوات السجن أثرت فيهم، واختبار النظرية المنسوبة لموشيه ديان، ويتداولها الأسرى، بأن لا أحد منهم، يقضي خمس سنوات في السجون الإسرائيلية، سيخرج سالما نفسيا وبدنيا، وما الأمراض التي تغزوهم، ويسمونها أمراض

السجن، مثل الروماتيزم، والبواسير، وقرحة المعدة، وغيرها، إلا دليلا على صحة نظرية الجنرال الذي خاض حُروبا كثيرة ضد العرب، على الأقل في جانبٍ واحدٍ، أما المعنويات، والآراء، والمواقف، فكانوا على قناعة بأنهم هم المنتصرون، وديان المحتل هو الخاسر، لأنهم مع حركة التاريخ التي تسير إلى الأمام، وهو ممثل احتلال، لابد، مثل كُل الاحتلالات زائل، وسيصبح مجرد ذكرى، وسيفخر تلامذة المدارس في قادم الأيام، بأنهم أسلاف من قالوها مدوية للاحتلال، ورفضوا الانحناء، وعبِدوا طريق الحُرية، بالدم، والدموع، والآلام.

كان آشر يعلم بما يجري من تبادل للآراء داخل السجن، بشأن الشقراء، وقرر بناء على سياسته عدم شد الحبل حتى لا يُقطع، ترك هذه الفرصة للسجناء، ليمارسوا ما سماه "عصف أمخاخ"، وهو برأيه أكثر شيء يجيدونه في معزلهم الصحراوي هذا، منتظرا النتيجة، وبعدها سيطبق سياسته التي يلخصها أمام الأسرى وأمام طاقمه بجملة: "كُب عليه مخ". وإذا حاولنا تفسيرها، فهي تعني ضرورة الانتهاء من الموضوع، ولكن هذا التفسير هو نسبي، وإذا فسرناه راديكاليا، وليس دائما هذا التفسير يصح لكل الحالات، فيمكننا الاستعانة بالمثل: "طَق عرق ونزل دم".

٨

استشعر جميع الأسرى، أهمية ما يدور بشكلٍ غير ظاهر في السجن، وليس مثلهم من لديه هذه القدرة على الاستشعار، بما

ستحمله رياح الأيام لهم في سجنهم الصحراوي، وفي مثل تلك الأجواء التي يعرفونها جيدا، والتي تسبق عادة أية مواجة لهم مع الإدارة، شددوا من احتياطاتهم، ونظموا مناوبات حراسة، على مدار الليل في الغُرف، شارك فيها ممثلون عن الفصائل، والهدف منها، منع أي اتصال لأي جواسيس مُحتملين مع الإدارة، عن طريق تسليم تقارير لرجال الشرطة المناوبين. اليقظة الأمنية هي أكثر ما يفخر بها الأسرى، ورغم انتقادات بعضهم، خاصة من المُثقفين اليساريين، للحذر المبالغ به، إلا أنه بسبب هذه اليقظة، تم التعرف على عملاء بينهم، وأبشع شيء بالنسبة لهم، وجود مثل هؤلاء (العصافير) يستمعون، ويُسجلون، ويثيرون القلاقل والفتن، مستغلين العلاقات التي تكون هشة أحيانا بين الفصائل المختلفة.

معظم الأسرى كانوا نزلاء هذا السجن، قبل سنوات، عندما شهد واحدة من أشهر إعدامات الجواسيس في السجون الإسرائيلية. أذهلتهم الاعترافات التي أدلى بها أبو علندا، وكشف فيها بأنه تسلل، قبل الاحتلال، عبر خطوط التماس الطويلة، إلى المخفر الإسرائيلي في بيت صفافا، قرب القُدس، التي قسمتها اتفاقات الهُدنة في فندق الوردة البيضاء في جزيرة رودس، ما لم تأخذه إسرائيل بقوة النار، أخذته بمسار القلم على الخرائط، وتم وضع سياج يفصل بين القرية الواحدة، والأسرة الواحدة، وبين الأب وابنه، والزوج وزوجته، وتحول بيت صفافا، إلى اثنتين، واحدة أُردُنية، وأخرى إسرائيلية، وعلى طرفي السياج، تُسير السلطتان الأُردُنية والإسرائيلية، دوريات راجلة كل في منطقتها للحيلولة دون

اختراق الحدود، من قبل زوج اشتاق لزوجته، أو أب أراد أن يزور ابنه، وتحولت منطقة السياج، إلى المكان المفضل للأهالي لتنظيم الأعراس والأفراح والمآتم، وتبادل الأخبار، والحكايات، والأموال، وبث المعنويات من طرف إلى آخر، ولم يكن من السهل، بالنسبة للأهالي، تحديد أي طرف منهم كان الأكثر حظا، فلا حظ في تقسيم القرية والناس، وفي الأعراس تنطلق الأغاني معبرة عن الواقع المؤلم، من أفواه النساء، اللواتي كن دائما الأكثر حساسية، تجاه التغييرات السياسية، والعصف بالمكان، الذي لم يتوقف بالنسبة للفلسطينيات منذ قرون عديدة:

عبرت النساء عن مأساة القرية بالغناء:

"هاتوا الجريدة نقرأها شوفوا بلدنا مين تولاها

يما بلدنا انقسمت قسمين

قسم أُردُني وقسم إسرائيلي".

لم يكن الوصول إلى المخفر الإسرائيلي في بيت صفافا "الإسرائيلية" بالنسبة لأبي علندا، مسألة سهلة، فالوصول إلى المخفر الذي يحتل منزل عائلة عبد ربه الصفافية، التي سيطر عليها حارس أملاك الغائبين، يستلزم التسلل عبر السياج، وهي مهمة ليست سهلة، وتتطلب تمويها للسلطات الأُردُنية، التي كان لها وجود عسكرى في القرية، لحماية الحدود الجديدة، ومن مظاهر ذلك المُعسكر الأُردُني في المنطقة التي تعرف باسم (وعر كتن) المطلة على المنطقة السهلية في القرية، التي تخترقها سكة حديد القدس- يافا، والتي أصبحت بمثابة خط هدنة جديد.

وصل أبو علندا إلى بيت صفافا، أكثر من مرة، وراقب السياج، الذي لم يكن مرتفعا كثيرا، وحاول أن يتقرب من جندي أُردُني يتولى الحراسة ماشيا بالقرب من السياج، ورآه يتوقف ويشعل سيجارته من قداحة الجُندي الإسرائيلي على الطرف الآخر ويتبادلان الحديث عبر السياج، بملل، وكأن الاثنين غير مقتنعين بالمهام الملقاة على عاتقيهما، في الفصل بين ناس القرية، الذين أصبحوا فجأة، وبسبب السياسة، إلى ناسين، في دولتين متخاصمتين.

قدم أبو علندا نفسه، باعتبار أن لديه أقارب على الطرف الآخر، وينتظر فرصة سانحة للحديث معهم في أمورٍ عائلية، ولم يكن ذلك سوى مبرر يتيح له المكوث والتجول في بيت صفافا الأُردُنية، لاكتشاف ثغرة في السياج يتسلل منها إلى المخفر، الذي لا يبعد كثيرا عن الحدود، بل يمكن رؤيته منها.

لم يتعاطف معه الجُندي، ونهره، ويبدو أنه يلتقي كثيرين من أمثاله المريبين، الذين يصلون إلى الموقع، لمحاولة التسلل، وبغض النظر عن أسبابه، سواء كانت لزيارة الأقارب، أو سرقة مواشي، أو تنفيذ عمليات فدائية، فإنها ستؤدي إلى مشاكل، لا يمكن أن يقدرها المتسللون، وقد تتسبب بعمليات اقتحام إسرائيلية، ومهاجمة منازل المدنيين، وما زالت المجزرة التي نفذتها القوات الإسرائيلية في الشرفات المطلة على بيت صفافا ووادي النسور الذي تخترقه سكة الحديد، بعد أقل من ثلاث سنوات على توقيع اتفاقات الهُدنة، ماثلة في الذاكرة.

في يوم السابع من شباط عام ١٩٥١، وصلت المركبات الإسرائيلية، إلى خط سكة الحديد، وأطفأت أنوارها، وترجلت منها فرقة كوماندوز تضم نحو ثلاثين جنديا، اجتازوا خطوط الهُدنة الهشة، وصعدوا إلى التلة، التي يقع عليها مقام ستنا البدرية، ومنزل عائلة العلمي، ومنزل المُختار علي مشعل، وكان الهدف واضحا، قتل وجرح أكبر عدد ممكن، والتبرير الرد على المتسللين، بطريقة الجيش الإسرائيلي، الذي لا يقف أي عائق أمامه للوصول إلى أي مكان يريده.

زرع الجنود المتسللون الألغام، حول منزل المُختار، ومنزل مجاور، وفجروهما، وانسحبوا، بحماية النيران الكثيفة التي أطلقها زملاؤهم من الأسفل، والنتيجة كانت مجزرة ذهب ضحيتها: رجلان، من بينهما المُختار، وثلاث نساء، من بينهم عائشة ابنة المُختار، التي عُثر عليها تحت الأنقاض، بعد أيام من المجزرة، وخمسة أطفال، بالإضافة إلى ثمانية جرحى من النساء والأطفال، وجميع الضحايا من عائلة المُختار.

انتشرت حكايات التفجير، والدمار، والشهداء، والجرحى، وتم تداولها بكثيرٍ من الغضب، والإيقاع الدرامي، ومنها ما يتعلق بالشهيدة عائشة، وشقيقتها أمنية ابنة الخمس سنوات، التي أخذت تصرخ من تحت الدمار، حتى أنقذها عمها.

في مثل هذه الحالات، كانت الجامعة العربية توثق ما يحدث، وتصدر بيانات تنديد، ويتم رفع شكوى لمراقبي الهُدنة، ويلوم الأهالي بشدة الجيش الأُردُني، والحرس الوطني، الذي لم يتمكن

من حماية الأهالي، ولم تكن مواقع الحرس الوطني بمنأى عن الانتقام الإسرائيلي، الذي كان يبدو غير مفهوم بالنسبة للسلطات الأُردُنية الملتزمة بالاتفاقيات.

تجول أبو علندا في القرية، وتعرف على شاب أكبر منه قليلا، يتدفق وطنية، ويكاد ينفجر غضبا على الأوضاع، ودعاه إلى منزله، وتناولا الغداء، ولم يكن ذلك نادرا بالنسبة لأهالي القرية الكرماء، وقدم له بفخرٍ نبذة عن القرية التي لعسف الأقدار، قُسمت.

لم ينس أبو علندا اسم مضيفه مصطفى عثمان، وحماسته وهو يشير، إلى أن اسم القرية، يعود لابنة إمبراطور روماني اسمها صفا، مرضت، وعندما عجز الأطباء عن علاجها، أشار عليه بعض المقربين أن يذهب بها إلى مكان جنوبي القدس فيه هواء نقي عليل، فاختار هذا المكان الذي سُمي فيما بعد قرية الصفا، وبنى لها برجا في وسط القرية، ما زالت أثاره قائمة حتى الآن، حيث شفيت، واستنادا لهذه الرواية أقيم في القرية عام ١٩٣٦ أكبر مستشفى في فلسطين للأمراض السارية مثل: السل، والربو، وضم أكثر من ستين سريرا، وبعد تقسيم القرية، أصبح المستشفى في المنطقة الحرام المحظور الدخول إليها، وارتبط هذا المستشفى بمستشفى (وعر كتن). وهو مستشفى للنقاهة، يزوره المريض بعد تلقيه العلاج في مستشفى الأمراض السارية. وذلك لوجوده في موقع مرتفع، وبيئة صحية، وبعد الحرب، استخدمه الجيش الأُردُني كبرجٍ للمراقبة.

ضاق أبو علندا، من دون أن يعلن، بمضيفه الذي لا يكف عن الكلام حول القرية المنكوبة، التي كانت فيها مطحنة أبو غندور الذي

جاء من يافا ليبني الطاحونة الوحيدة التي أمنت القمح للقُدس وقراها، حتى نسفها، خلال الحرب، مستوطنو مستوطنة مكور حاييم القريبة.

٩

انتظر أبو علندا حتى ساعات الفجر، وتسلل عبر فتحة في السياج، ووصل مخفر الشرطة في منزل عائلة عبد ربه، التي اعتبرت من الغائبين، وفقا للقانون الإسرائيلي، الذي صنف كل فلسطيني ترك منزله لفترة وجيزة خلال الحرب، غائبا، وكثير من الغائبين، عاشوا لاحقا في منازل قريبة من منازلهم المحتلة، دون أن يتمكنوا من العودة لها، وسخر الشاعر الفلسطيني راشد حسين بمرارة:

الله أصبح "غائبا"
يا سيدي
صادر إذا حتى بساط المسجد
وبع الكنيسة، فهي من أملاكه
وبع المؤذن في المزاد الأسود
حتى يتامانا أبوهم »غائب«
صادر يتامانا إذا يا سيدي
أنا لو عصرتُ رغيف خبزك في يدي
لرأيت منه دمي... يسيل على يدي

دخل أبو علندا المخفر، وبدون مقدمات عرض أن يكون

جاسوسا، ويبدو أن الإسرائيليين، لأسبابٍ معينة، لم يثقوا به، أو لم يأخذوا كلام الفتى الذي كانه على محمل الجد، فأوصلوه الحدود، وأعادوه من حيث أتى، من خلال نقطة آمنة، بعيدا عن أنظار الحرس الوطني الأُردُني، وعندما احتل الإسرائيليون ما تبقى من أراضٍ فلسطينية، ومعها أراضٍ عربية، ذهب مرة أخرى للمخفر الإسرائيلي، ولكن هذه المرة في القشلة بالقُدس، داخل باب الخليل، وذكرهم بعرضه السابق، وعندما بحثوا في الأرشيف، تذكروه، وحولوه إلى قسم الشاباك في المسكوبية بالقدس الغربية، وكلفه رجال الشاباك بعمليات اغتيال في بيروت، ودمشق، ضد الفدائيين.

وقبل تنفيذ عملية كبيرة، لم يفصح عنها رجال الشاباك تحديدا، قرروا اختباره بوضعه في سجن بئر السبع لمدة ستة أشهر، بتهمة مزيفة، وقالوا له: إذا لم يكتشفك السُجناء، فمعنى ذلك أنك اجتزت الاختبار بنجاح، وأصبحت أهلا للمهمة الكبيرة، وسنضمك لفرقة الاغتيالات الخارجية.

قبل أبو علندا العرض بحماسة، ولكن جهاز الرصد الثوري التابع للأسرى تمكن من كشف أبو علندا، الذي أدلى باعترافات مذهلة، كشف فيها عن جرائمه الوطنية والأخلاقية، ونجح المحققون من الأسرى بالحفاظ عليه طوال فترة التحقيق، كي لا يهرب ويُسلم نفسه للإدارة، وصدر الحكم بإعدامه، وتم تجهيز سكاكين سُنت محليا من قطعٍ معدنية، وملاعق هُربت من المطبخ، ونُفذ الإعدام بطعن أبو علندا، طعنات متتالية، أودت بحياته.

وتم جر جثته إلى باب الغُرفة، ووقف أحد الأسرى من المحكومين

بعدة مؤبدات، بجانب الباب وصرخ على الشُرطي:

ـ تعالوا خذوا كلبكم..!

وأضيف مؤبد جديد، على حُكم الأسير الذي تبنى القتل، وأمضى فترة في زنازين العزل، قبل أن يعاد إلى غُرف السجن، ونُظر إليه كبطل مثل معاني الرجولة المطلوبة.

كشف جاسوس بحجم أبو علندا، واعترافه بأنه تم وضعه بينهم كاختبار، جعل الأسرى يفخرون بقوتهم، واعتراف الشاباك بها.

ولاحقا سيروي إبراهيم البسة، باعتباره أحد مؤسسي جهاز الرصد، مستندا إلى خبرته الأمنية وتلقيه دورات أمنية قبل اعتقاله، بأنه كان من أوائل من تنبهوا لاحتمال أن يكون أبو علندا جاسوسا.

كان أبو علندا يتقرب كثيرا من إبراهيم، وقد يكون ذلك بطلبٍ من الشاباك، ويحاول كسب ثقته، ويروي له حكاياته خارج السجن، ومنها شيطناته، وزندقته، ويعتقد بأنه بمثل هذه الحكايات يمكن أن يصبح بسهولة صديقا لإبراهيم الشاب المحروم.

روى أبو علندا لإبراهيم، حكاية لم يستطع الأخير أن يمر عنها بسهولة، وجعلته يركز أجهزة استشعاره على هذا الذي يفخر كيف أوقع فتاة فلاحة ساذجة بشباكه، ثم أوقع أمها، وكان يقول بشبه افتخار:

ـ أنا من استخدم الفرجين..!

بالنسبة لإبراهيم، فإن سلوك المناضل الثوري، يحتم عليه المحافظة على أبناء وبنات شعبه، وليس الإعلان عن انتهاك الفرجين، وقادت مراقبة أبو علندا الدقيقة، إلى الإيقاع به، وإخضاعه للتعذيب

في الحمامات، وتسجيل اعترافاته، ووضعها في كبسولة ونقلها بالبوسطة، لاطلاع قيادة السجون عليها، قبل اتخاذ القرار وتنفيذه.

ولاحقا، مع ما وصفه إبراهيم تطوره الفكري، عزا كشف أبو علندا، للشك، وفرح عندما قرأ ابن خلدون داعيا إلى إحكام العقل في الخبر، ورآها دعوة إلى الشك، إلى التفكير، وفتن بكتاب طه حسين (في الشعر الجاهلي) الذي أراده المؤلف جديدا في منهجه، بالنسبة للعرب، وعندما قدم مداخلة في حلقة للأسرى عن الشك، قال إبراهيم: "حتى في اللاهوت الإسلامي والمسيحي، سنجد دورا محوريا للشك، ومثال ذلك الأبرز أبو حامد الغزالي، والقديس أوغسطين، فالإيمان بدون شك، مجرد إيمان بيولوجي، تحكمه جينات الوراثة، أما الإيمان بعد شك، فهو إيمان مختلف. الشك جوهر المسألة، الشك هو دعوة للتفكير، والحُرية، والتقدم، الشك ضد اليقين، اليقين ثبات آسن..!.

وختم مازحا: "ثورة الشك ليست مجرد أغنية لأم كُلثوم ..!"، فضحك الأسرى الذين يعرفون حكاية شُرطي درزي، انتبه لصمت الغُرفة في الساعة المسائية، التي اعتادت الإذاعة الإسرائيلية بث أغنية لأم كُلثوم خلالها، وكانت تُمكن الأسرى من سماع الأغنية، عبر سماعات في السجن، وأضحت هذه الساعة لمعظم الأسرى، ساعة شبه مقدسة، يلوذ كل واحد منهم فيها إلى نفسه، يتذكر، ويحلم، ويأمل.

وعندما سأل الشُرطي أسيرا كان يقف قرب الباب عن سر الصمت، أجابه ضاحكا:

- إنها الثورة، ثورة الشك..!

لسببٍ ما، رُبما لإخلاء مسؤولية لاحقة، قصد الشُرطي الإدارة، وأبلغها عن ما يدور بين الأسرى من نية إحداث ثورة، وعندما استفسر آشر بنفسه عن الموضوع، وعرف أن الأمر يتعلق بأغنية أُم كُلثوم الشهيرة، أصبحت موضوعا للتندر.

١٠

عندما كان إبراهيم البسة يلجأ للنوم، وهو يقاوم النعاس، يطمئن على الشقراء وأبنائها، يُمسد على ظهرها، يتحسس زردها، فقرة فقرة، ويتمتم بكلمات غير مفهومة، وترد عليه بإخراج صوت ممتن متحشرج، وكان يبدو له في تلك الليالي الحرجة، بأنها تبذل جهدا لتوصل له الكثير من الامتنان، والمشاعر اتجاهه واتجاه زملائه، وكأنها تعلم ما حدث، وما يدور في غُرف الأسرى، ونية آشر لإنهاء الموضوع بأي ثمن.

لم يكن التوتر سببه فقط ترقب ما ستسفر عنه (الحرب الباردة) مع إدارة السجن، ولكن ما أحدثه نحو خمسة أسرى من إفصاح عن توجهات أيديولوجية مغايرة للسائد لدى الفصيل الأكبر في السجن، بدأ هؤلاء يكشفون عن وجهات نظر بدت غريبة ومتطرفة بالنسبة للاتجاه العلماني السائد بين الأسرى، فيرفضون في الاحتفالات التي ينظمها الأسرى الهتاف للوطن، وللفصيل، وللعلم الوطني، معتبرين أن الجهاد لغير وجه الله، كفر، وأن الموت في سبيل الوطن وليس في سبيل الله، لا يعتبر شهادة، وأن استبدال

مباديء ثورية وضعية بالقرآن، خروج على دستور المسلمين، وهو كتابهم الذي أنزله الله من السماء.

مثل هذه المواقف التي بدت تفصح عن نفسها، من خلال متبنين أبدوا شجاعة في التعبير عن مواقفهم، تم التعامل معها من قبل قيادة الأسرى بقسوة، باعتبارهم منفلشين، لأنها ستقوض ليس فقط الأسس الفكرية والمباديء الوطنية للحركة الأسيرة، ولكنها ستحدث فوضى في البنيان التنظيمي الذي شيدته الأجيال الأولى من الأسرى، بكثيرٍ من الصعوبة، وفي مواجهة يومية مع إدارات السجون.

عوقب العديد من الخارجين عن توجهات الأسرى العامة بالنبذ، ومن أبدى مغالاة منهم، حُكم عليهم بقضاء وقت في الحمامات، خلال الفعاليات الوطنية التي ينظمها الأسرى.

في ظل هذه الأجواء، تمكنت إحدى نوبات الحراسة في إحدى الغُرف، من إمساك أسير، قبل أن يقذف بورقة مطوية، من خلال القضبان، خارج الغُرفة، إلى الحارس المناوب، ولم يكونوا بحاجة إلى أكثر من ذلك، ليدركوا أن سهرهم وسهادهم وانتظارهم لم يُبدد.

سُلمت الورقة أولا للجنة النضالية الفصائلية المحلية في الغُرفة، قبل أن يتم رفعها إلى اللجنة القيادية للسجن، ولاحقا، نقلها أسير عبر البوسطة، إلى اللجنة القيادية للأسرى في سجون الاحتلال.

ولكن ما الذي خُط في الورقة وهل له علاقة بالشقراء؟ والكشف عن خطط الأسرى في المواجهة المنتظرة؟ وحالتهم المعنوية؟ وقرارهم

بالمواجهة أو التريث؟

لم تكشف اللجان المتعددة عن فحوى التقرير، حتى لا تتسرب المعلومات إلى ما لا يجب أن تتسرب لهم، من عصافير محتملين لم يُكشفوا، فيعلم آشر بما يجري بين الأسرى.

ولكن سرى بين الأسرى، عن طريق التناقل، أن التقرير الذي كتبه العُصفور، يتضمن تفاصيل عن خطة سرية لم يتم مناقشتها إلا على مستوى قيادي ضيق لمواجهة غزوة آشر المقبلة لإخراج الشقراء، وكسر شوكة الأسرى، الذين كانوا على قناعة، بأن آشر قادر على القبض على الشقراء والتخلص منها، ولكنهم سيحاولون إخراج القضية، بأكبر قدرٍ من الخسائر لآشر وزمرته، وتحميله المسؤولية عن حياة القطة والقطط الصغيرة الوليدة، وفضحه أمام الرأي العام المحلي، والعالمي، والإسرائيلي إن أمكن، بصفته ممثلا لدولة الاحتلال، التي لا تقيم وزنا لحياة الحيوانات الأليفة، فكيف الأمر بالنسبة للأسرى، وهم بشر احتجزوا، بسبب ممارستهم لحقهم الذي كفله القانون الدولي والأعراف، بالنضال ضد الاحتلال.

وقيل بأن البيان الأول في المواجهة المتوقعة، صيغ، وكان في انتظار اندلاعها، لإخراجه خارج السجن، عبر زيارات المحامين، ليَصِلَ لوسائل الإعلام، والصليب الأحمر، والمنظمات الدولية.

المؤكد فيما حدث، هو إخضاع العُصفور للتحقيق، والمحافظة على أن لا يُعصفر، أي عدم هروبه، بتسليم نفسه لشرطة السجن وقت التمام، كما يحدث عادة، فتم تقييده خلال فترة التمام داخل الحمام، والطلب منه الدق على باب المرحاض، لتأكيد وجوده للشرطة

المسؤولين عن عد الأسرى، والتهديد بأنهم سيقتلونه إذا حاول الصراخ أو الهروب.

ورغم معرفة العُصفور، بأن التهديد بالقتل، مجرد تهديد، لعلمه بأوامر قيادة فتح خارج السجن بحظر الإعدامات، إلا أنه لم يغامر بالهروب، وتحمل نتائج غير متوقعة، وإذا قرر الهرب، فسيهرب، بعد هدوء الضجة، وانشغال الأسرى بقضية جديدة.

توقع الأسرى بأن آشر سيشن حملة تفتيش على غُرف السجن، إذا علم بأن عُصفوره، تم كشفه، وأكثر ما يخشاه الأسرى، الحملات التي تُشن بين الوقت والأخر من فرق مكافحة الشغب، مدججين بالسلاح، يرتدون الأقنعة، ويقذفون بكمياتٍ كبيرة من الغاز المدمع داخل الغُرف.

والنتيجة تكون أن السجين، الذي تكيف نسبيا مع ظروف حبسه، عليه أن يبدأ من جديد بدون أوراقه، وأشيائه الصغيرة، التي ارتبط بها بحميمية، وراكم ذكريات، بغض النظر عن صغرها، أو تفاهتها، بمقاييس الذين يعيشون خارج السجن، إلا أنها بالنسبة للأسرى تكتسب معانى كبيرة.

لم يكن كُل ذلك غائبا عن اللجنة النضالية في السجن، فأنهى المكلفون منها التحقيق سريعا مع العُصفور، وتأكدوا بأنه ليس من العصافير الذين يمكن أن يُصنفوا في خانة الخطورة، وكانوا في انتظار إصدار العقاب الملائم عليه من القيادة العليا، ولكن هذا يستلزم وقتا، فاتخذوا قرارا بجلده ٨٠ جلدة، واستتابته، وإذا عاد للعصفرة، فسيكون بانتظاره حكم أشد، مع تشديد الرقابة عليه، كي لا يهرب ويُسلم نفسه للشرطة.

وألزموا العُصفور، ببرنامج تثقيفي خاص، يتضمن مباديء حركة فتح العشرة، ونبذة عن تاريخ العصابات الصهيونية، قبل تأسيس دولة إسرائيل، وملخص لتاريخ فلسطين، ومواد تثقيفية عامة، وإذا جاءت التقارير عنه إيجابية بشأن تفاعله مع هذا البرنامج التثقيفي، فسيُسمح له، بحضور الجلسات اليومية والدورية الملزم كُل أسير بحضورها، وكل مع فصيله، والتي تهدف إلى ترسيخ الوعي بمخاطر دولة الاحتلال، وتعزيز الانتماء للوطن والفصيل.

١١

لم ينتظر آشر كثيرا، وأراد أن يحتفظ بزمام السبق، ولا يترك للأسرى فرصة التحكم في اللعبة، فهو يعلم بأنهم إذا شعروا بأي انتصار سواء كان وهميا أو جزئيا، أو شبه انتصار، فإن هؤلاء الشغوفين بالرموز، سيعلون من رمزيته، وسيبنون عليه، ويطالبون بالمزيد، وهو يعلم أيضا مقدار ما يعتبره طمعا في شمائلهم العربية المترسخة، واستغلال أي بادرة طيبة، واعتبارها ضُعفا.

حضر آشر إلى الغُرفة، ومعه مجموعة من القوات القمعية الخاصة بلباسها الكامل المخيف وكأنها مستعدة الآن وفورا لتنفيذ عملية خاصة من تلك العمليات التي يُنفذها جهاز الموساد خارج الحدود، وطبعا ليس مثل الأسرى قدرة على فهم المقاصد الرمزية، وتأويل أي شيء، خصوصا عندما يكون مصدره إدارة السجن.

قال آشر، وهو محاط برجاله المخيفين، بصوتٍ جهد ليكون ودودا:

ـ لا تعتبروا أنفسكم أكثر رحمة على القطة التي تسمونها الأشقرية مني، فالرحمة يجب أن تكون لدينا جميعا، سجانين ومسجونين، ولكنني أريد تطبيق القانون..!

بعد لحظات صمت، رد إبراهيم البسة:

ـ عن أي قانون تتحدث، قانون الله، أم قانونك؟ قانون الرحمة، أم بطش القُوة؟ لو وجد قانون لكنا خارج السجن، أنتم تحتجزوننا خارج نطاق القانون الدولي الذي يتيح لنا النضال ضد الاحتلال.

ـ أنتم تضيعون حقوقكم، لتمسككم بالكلام الذي لا يودي ولا يجيب، وبرفعكم للشعارات الخادعة، عليكم دائما أن تكونوا واقعيين...!

ـ تريدوننا خانعين، من يُطالب بحقوقه ومستعد لدفع الثمن، هو الرحيم والإنساني، الثورة تُعلمنا، أن نكون بشرا، وليس مثلكم..!

كلمات إبراهيم، أشاعت دفئا بين الأسرى، وعززت معنوياتهم التي يحافظون دائما على جعلها مرتفعة، وهم يعلمون أنه ليس هناك أقسى من انحدار الأسير في مغبة الضعف والاستكانة، وفقدان الأمل. إنه الموت، أو المعادل له، أو أكثر منه، إنه الموت المتعدد، الموت اليومي، بالنسبة لأسير محكوم بمؤبد أو عدة مؤبدات ولا يعلم متى ستُفتح أبواب السجن.

وبدا آشر بأنه لم يفهم كُل ما قاله إبراهيم، لأنه أراد تجنب الإحراج، والمواجهة بقدر الإمكان، وأخذ يشرح، مستعيدا صورته المهنية كمدير:

- سنخرج القطة من الغُرفة مع أبنائها، ولأنني لا أقبل بفصلها عن أبنائها، سأتركها معهم، بجانب كُشك الحارس، حتى يكبر الأولاد، ويذهب كُل في طريقه، هههههه ونسجل في سجن بئر السبع نهاية سعيدة لقصة درامية غريبة..! وأنا أعلم أن الكُتاب والشعراء منكم، وهم كُثر، ولديهم حساسية عالية، سيوثقون الحكاية، وستروونها للأحفاد، فالحياة هي مجموعة حكايات فيها المر وفيها الحلو..!

- حُلو؟ لم نر منكم أي شيء حُلو، وكما تقول أمي: "لا يأتي من الغرب شيء يسر القلب"، أنتم مستوطنة غربية كبيرة على أرضنا..!

تجاهل آشر كلام إبراهيم وهمهمات استنكارية ساخرة لبعض الأسرى، وواصل كلامه:

- نحن نعيش ظروفا علينا جميعا أن نستغلها، رئيس أكبر دولة عربية، يستعد لزيارة إسرائيل، مُعلنا أن المشاكل التي بيننا، سببها نفسي، وهذا صحيح، علينا أن نعرف بعضنا البعض، ولو أنكم لم تكونوا ضحية للدعاية العربية المغرضة ضدنا، لما كنتم هنا، أكيد ستكونون في جامعاتكم، أو رُبما تخرجتم مهندسين، وأطباء، وعلماء، وأنا أعلم، أن بلادكم العربية بحاجة إليكم، أنا شخصيا عشت في بلد عربي، وجيراني من العرب، وأعرف مقدار ما يعانون. السادات يمد يده لنا، ناشدا السلام، وجميعنا سنرد التحية بأكبر منها، جميع قادة شعبنا ودولتنا، المعارضة، وغير المعارضة، الجنرالات وأصحاب الأقلام الحرة، رحبوا بالسادات، وستعرفون بأن الحوار والسلام هو فقط، بالنسبة لنا، ما يحقق المطالب، إننا

بشر مثلنا ومثلكم، أنهكتنا الحروب، مثلما أنهكتكم، لماذا لا نضع أيدينا بأيديكم ونعمل من أجل رفاه أبنائنا، وأبنائكم؟.

ما كاد آشر ينهي كلامه، حتى أمر فريقه بالانقضاض على القطة التي بدت ضعيفة أمام المدججين بالسلاح وقنابل الغاز المدمع والمقنعين، الذين لا يظهر منهم سوى أعينهم، فتمكنوا من حملها وأبنائها في الكرتونة، وإخراجها من الغُرفة، بينما ارتسمت ابتسامة نصر كبيرة على محيا آشر، الذي أراد أن يُبقي الجو لطيفا مع الأسرى:

- أترككم بخير، ديروا بالكوا على حالكوا..!

١٢

وهو متجه إلى باب الغُرفة، سمع آشر صوتا يأتيه من الخلف:

- فاشست، حتى القطة لم تسلم من قمعكم..!

- إفرادة..!

قال آشر بغضب، دون أن يلتفت خلفه، وواصل السير.

أمسك شرطيان بإبراهيم البسة، وقيدا يديه خلف ظهره بواسطة كلبشات، وقاداه أمامهما، وأخضعاه لتفتيش دقيق ومهين، بعد تجريده من ثيابه، في الرواق المؤدي إلى الزنازين.

أُحتجز إبراهيم في زنزانة انفرادية، عقابا له لتطاوله على آشر، والاحتجاز في الزنازين الانفرادية، عقوبة قاسية تفرضها إدارة السجن على الأسرى، وتعني للسجين الانقطاع التام عن العالم الخارجي، وحرمانه من زيارة أهله له، أو الأمهات المتطوعات، كما

في حالة إبراهيم وأسرى الدوريات، وعدم التواصل مع الأسرى في الغُرف، وإلغاء هذه العقوبة أحد المطالب التي يطرحها الأسرى بشكل دائم خلال المفاوضات مع الإدارة، ولم ينجحوا بإلغائها، خلال الإضرابات التي خاضوها في السنوات الماضية.

خطط إبراهيم، لإبلاغ أُم عزيز، وهي والدة زميله الأسير عزيز، التي تتطوع لزيارته، لوجود عائلته خارج فلسطين، عن حكاية الشقراء، وفكر كيف يمكن أن يوصل إليها أهمية القضية، وهو يتوقع أن تضحك عندما تسمع الحكاية وتقلل من أهمية الأمر:

ـ كُل هذا من أجل بسة..؟!

ورُبما ستزعل، لتخصيص وقت من النصف ساعة، هي وقت الزيارة، لحكاية غير مفهومة عن بسة، يفترض أن يرى الأسير أهله، أو من يسمح لهم بزيارته، ست ساعات في العام، ولكنها أقل من ست ساعات، فخلال الإضرابات، واستنفار قوات الأمن في السجن، واقتحام الغُرف، تلغى الزيارات.

في كل شهر نصف ساعة، وما أن يدخل الأسير وزائروه في جو الزيارة، يبدأ رجال الشرطة بإعلاء الصوت مطالبين السجناء، وأهاليهم، بالتوقف:

ـ انتهت الزيارة..!

ويصفقون بأيديهم:

ـ يا الله.. يا الله..!

إنهم يقطشون خمس دقائق من الثلاثين دقيقة. تذهب، تتبخر، يقطشون سنوات من العمر المقطوش أصلا.

أمل إبراهيم من خلال الزيارة الشهرية المرتقبة، أن تنقل أم عزيز للرفاق في الخارج حكاية القطة، وبحث إمكانية إثارتها إعلاميا، ولكن كُل شيء الآن تبدد، مع احتجازه في الزنزانة اللعينة.

لم تبرح صورة الشقراء مخيلة إبراهيم، وظل قلقا على مصيرها، ومصير أبنائها وبناتها، وتسلى في عُزلته بتذكر ألوان القطط الصغيرة، وهي مهمة ليست سهلة، واعتبرها اختبارا لذاكرته، وتدريبا على إنعاشها، وحدس كم ذكر وأنثى بينها. وقرر أن يُكون صورة لكل قط صغير وقطة صغيرة في ذهنه، يعرفها من وجوهها المتشابهة التي لا يمكن التمييز بينها، ولكن بالنسبة له، قرر أن لكل ابن وبنت للشقراء وجهاً مميزا وخاصا، سيحفره في ذاكرته، في مواجهة محو الذاكرة، وهي سياسة يعتقد إبراهيم أن آشر وأسياده، ومن سبقهم من أعداء، مارسوها على الشعب الفلسطيني.

في الزنازين الانفرادية، يُدرب الأسير صاحب الخبرة نفسه، على تنشيط مهارات معينة لديه، أو اكتساب مهارات جديدة، وهو نشاط بالغ الأهمية له معنى للمحافظة على الوجود الفيزيائي والنفسي للأسير، في مواجهة الواقع الصعب، لشخصٍ محتجز بين أربعة جُدران على مدار الساعة، ولا يرى بشرا، إلا السجان المناوب ثلاث مرات في اليوم، عندما يجلب الطعام.

يُدرب الأسير المحتجز في زنزانة نفسه على التذكر، ويروي لها الحكايات، ويؤلف حكايات أخرى، ويحل مسائل رياضية، ويلقي أبياتا شعرية بصوت عالٍ، وربُما يجري حوارات مع أشخاص مفترضين، حتى لا يُصاب بالجنون، وهو ما فعله إبراهيم البسة،

الذي يعتبر نفسه صاحب تجربة في مواجهة الأساليب الاحتلالية، لإخضاع الأسرى وتدجينهم وإصابة أرواحهم، وعُرف عنه العناد، وحاول دائما الحفاظ على هذه الصورة المعروفة عنه أمام باقي الأسرى.

أخذ يفسر علاقته بالشقراء، ويستذكر حكاياته السابقة مع القطط، ومن بينها حادثة دخلت تاريخ الأسرة، عندما هدد والده بحبسه في غُرفة القطط، وهي غُرفة صغيرة من الصفيح، تستخدمها العائلة كمخزن، إذا استمر في تصرفاته الشيطانية، وجلب المشاكل لوالدته، عندما يكون الوالد في العمل.

نفذ الوالد تهديده، وأُدخل إبراهيم الصغير إلى الغُرفة، وحاول أن يظل متماسكا، ولكنه بعد أن وجد نفسه في الظلام، عرف ماذا عنى والده بالحبس في غُرفة القطط، فهذا يعني الجزع من أية حركة، والخوف منها حتى الموت، ودقات القلب تتحول إلى قرع طبول، وتخيل حدوث حركات عدوانية من القطط.

يتذكر إبراهيم كيف أنه انتبه لقطة سوداء، لا بد أنها كانت واحدة من قطط الحارة الكثيرة السائبة غير المحسوبة على عائلة معينة، كانت تُرضع أطفالها، أظهرت عدوانيتها، ونفثت باتجاهه، وبقوة، هواء قويا، وكان ذلك كافيا ليجعله لا يكف عن الصراخ، ولا يعرف متى تنبه والده، الذي يعلم مغبة حبس إنسان مع قط في مكانٍ مغلق، حيث يتحول، كما كان يقول الوالد إلى نمر، نمر حقيقي، لا يمكن أن يُهزم، وقادر على قتل رجل، ففتح الباب بسرعة، وأخرج إبراهيم، الذي احتضنته والدته، وهي توجه نظرات اتهام نحو الوالد.

ولاحقا، زارته القطة السوداء، وقطط أخرى في الحُلم، وعندما كان يستيقظ هلعا، تحاول الوالدة طمأنته، حتى تم عرضه على مؤذن الجامع، الذي قرأ على رأسه آيات قرآنية، محذرا من مغبة الحُلم بالقطط، قائلا بلهجة الواثق، بأن مصيبة ستقع لا محالة:

"الحُلم بالقطط ليس فقط مصيبة واحدة، ولكنه مصائب متعددة، إلا إذا تمكن المرء من التعامل مع الأمور بروية وحيطة وذكاء، بفضل الكريم. فإذا حلمت بقطة ولم تتمكن من قتلها، أو رميها بعيدا عنك، فهذا يعني أنك على موعدٍ مع مشاكل لا يعلم بها إلا الله، ومع سوء حظ سيلازمك طويلا، ولكن..."

هذه الـ «لكن» هي الأهم بالنسبة للمؤذن الملتحي الطموح لكي يستمر مُفسرا لأحلام الأهالي: "...ولكن إذا تمكن الحالم، من قتل أو إبعاد القطة في الحُلم، فهذا يعني أن الله، كتب له في الدفتر المحفوظ، أنه سيتمكن من التغلب على المصاعب التي سيواجهها، وسيفتح الله أمامه أبواب الرزق مشرعة، بقدرته الواحد القهار، الذي يُغني من يشاء، ويُفقر من يشاء، يخيف من يشاء، ويدب الشجاعة في قلب من يشاء، يُخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ينصر السبعة على السبعين، ويُخرج الروح من الجيفة، يُعلي أمما، ويُنزل أخرى أسفل سافلين، وكل ذلك لحكمةٍ مدبرة، بيده المُلك، وكل من يدب على الأرض، طوع أمره".

ولم يتمكن المؤذن ولا غيره، من منع القطة السوداء من زيارة إبراهيم في الحُلم، وتنغيص ساعات نومه، خصوصا بعد أن فشل

في قتلها، أو إبعادها عنه، أو الأصح أنه لم يفكر بقتلها أو إبعادها، وكان على وشك أن يقتله الرعب.

يتذكر إبراهيم في زنزانة، في صحراء النقب، بعيدا عن منزله وعائلته، وناسه، حُلمه الطفولي، بكثيرٍ من المرح، ويحاول أن ينسج حكاية مشوقة، سيرويها لزملائه، آملا أن تثير اهتمامهم. في السجن الحكايات مُهمة، وكذلك طريقة روايتها، يمكن أن يروي الأسير نفس الحكاية، وعلى مدار السنوات، بطرقٍ مختلفة، أو الأصح بنكهاتٍ متعددة، وسيرى تأثير ذلك مباشرة على مستمعيه. السجن بدون حكايات، هو جحيم أرضي.

١٣

عاودته بشدةٍ وبإصرار، حكاية هروبه، أو الأصح مغامرته العجيبة، التي لا يعرف تفاصيلها حتى أهله. في بدايات تأسيس منظمة التحرير في عام ١٩٦٤، كان عمره ١٤ عاما. فتى شارك في المظاهرات المختلفة في ساحة المهد في بيت لحم، انطلاقا من مُخيم الدهيشة، وهتف لفلسطين، والحُرية، وضد الأنظمة العميلة.

في منطقة السينما، رأى شخصا من مُخيم عايدة، يرتدي زيا عسكريا مموها، أثار اهتمام إبراهيم، بشكل كبير، يحكي مع صديقٍ له ويخبره، بأنه يتدرب في دمشق.

لم يكن بحاجة ليختلس السمع، ليسمع أكثر من ذلك. ما سمعه كان بمثابة طوق نجاة له، يبحث عنه منذ ذلك اليوم الذي تعرض فيه لـ "علقة" لا تُنسى. بعد إحدى المظاهرات، عاد إلى المُخيم، مشيا،

في شارع القُدس- الخليل، مع رفيقٍ له في مثل سنه، وأمام البصة، المركز العسكري الذي بناه الانجليز، ضمن المباني التي بنوها خارج المدن الفلسطينية وصممها المهندس تيغرت، وورثه الأردنيون، نادى عليه الجُندي أمام المدخل، وطلب منه أن يكشف ما في جيوبه، التي كان فيها القليل من بزر عين الشمس، والقليل من القروش، وسأله إذا كان شارك في المظاهرة، فأجاب إبراهيم بلا قاطعة، ولكنها غير مقنعة بالنسبة لجندي البادية، الذي طلب منه أن يتمدد على الأرض على بطنه، وضربه بعصا على مؤخرته، حتى احمرت، وهو يقول:

- خلي الشُقيري ينفعكم..!

الشُقيري الذي بدأ اسمه يتردد على ألسنة المتظاهرين، لم يكن يعني بالنسبة لإبراهيم الكثير، سوى كلام مبهم عن الهُوية الفلسطينية، والثورة، والتحرير.

نهر الجُندي إبراهيم ورفيقه الذي اكتفى الجُندي، على ما يبدو، بخوفه من تعرضه للضرب، وطلب منهما الإسراع إلى منزليهما في المخيم، فحاول إبراهيم أن يسرع ولكن الألم لم يساعده. رافقه أكثر من شهر، ومؤخرته منتفخة، ولم يخبر أحدا بما حدث.

عندما سمع صاحب الزى العسكري، اتخذ قراره. في اليوم التالي، خرج من المنزل مبكرا، ومعه خمسة دنانير، أخذها من مصروف البيت، الذي كان والده يعيل أفراده من عمله في وكالة الغوث براتب شهري مقداره تسعة دنانير أُردُنية.

وصل القُدس، وركب في حافلات القُدس- إربد، لم تكن الضفة الشرقية لنهر الأُردُن غريبة عليه، فأمه اصطحبته أكثر من مرة في زيارات لأقاربها، في مدينة الزرقاء.

وفي إربد، كان يعلم أين سيتجه، من خلال المعلومات المدرسية، ركب إلى الرمثا، ونزل إلى السوق، اشترى خنجرا، وفواكه، وتوجه إلى الحدود السورية. مر من نقطة العبور الحدودية، ولم يوقف أحد من الجنود الفتى الذي لم يشكوا في نواياه. سار على الشارع العام، ثم انحنى نحو البرية، وبعد نحو ٢ كيلو متر، رأى فتية مثله، ومعهم حمير، اقترب منهم، وسألهم عن وجهتهم، فأخبروه بأنهم متوجهون إلى درعا، فسار معهم، بعد أن أخبرهم بأنه متوجه إلى أقاربه في الشام. ووزع عليهم ما لديه من فواكه.

كان الفتية يحملون على الحمير كميات من السكر والسجائر، وفي انتظارهم على مسافة، رجال يراقبونهم بالنواظير. عند وصولهم، اكتشف إبراهيم أن المنتظرين، هم آباء المهربين الصغار، الذين فسروا وجود الفتى الغريب الذي منحهم الفواكه، بأنه تائه متجه إلى أقاربه في الشام.

تطوع أحد الرجال بوضع إبراهيم خلفه على الدراجة النارية، وإيصاله إلى موقف حافلات درعا، ليركب من هناك إلى الشام.

ركب إبراهيم تاكسي، مع آخرين، وانطلق إلى الشام، أخيرا ستتحقق أحلامه، وينضم للفدائيين. عند الشيخ مسكين، أوقفتهم نقطة عسكرية، وطلب الجنود بطاقات الهُوية، لكز إبراهيم بهدوء جاره الغافي في التاكسي، ليصحو، ويبرز بطاقته للجُندي، الذي لم يخطر بباله سؤال الفتى عن بطاقته، ورُبما اعتقد أنه بصحبة الرجل.

وصل دمشق، وأراد أن يكافيء نفسه بشراء شطيرة فلافل، وبعد أن أنهى طعامه، برزت مشكلة، يبدو أنه لم يفكر بها، أين سينام؟ تحسس النقود في جيبه، وبحث عن فندقٍ، ووصل إلى مداخل ثلاثة فنادق، وكان يعود خائفا، مترددا، وفي المرة الرابعة، لم يدر حتى الآن أي ملاك حارس، كان يرافقه، عندما صعد درجات الفُندُق، ليراه يخرج من الباب، إنه الأستاذ محمد محمود، معلمه في مدرسة الدهيشة، قبل فراره إلى دمشق، هاربا من ملاحقات المخابرات له بسبب انتمائه لحزب البعث.

محمد محمود، كان يسكن ليس بعيدا عن بيت عائلة إبراهيم، ويعرف والده، وباقي أفراد العائلة جيدا، وشكل اختفائه، مثل حكايات المعتقلين السياسيين الشيوعيين، والناصريين، والبعثيين من المُخيم، حديثا للناس الذين كانوا يتعاطفون مع من تلاحقهم الحكومة لأسبابٍ سياسية. ولا تخلو حكايات المطاردين والمعتقلين من غموض، ومبالغات، ومواقف شجاعة شهد على بعضها الأهالي، ومن مواقف الأستاذ محمد استغلاله وقوف الطلاب في الطابور الصباحي، ليبث لديهم الروح الوطنية، والقومية، واخترع حركتي استعد واسترح خاصتين به، فعندما يطلب الأستاذ المناوب من الطلبة الاستعداد أو الاسترخاء، كانوا يفتحون ويضمون الأرجل، أما عندما كان يصرخ الأستاذ محمد بهم: استعد..استرح، فكان الطلبة يتقبلون ذلك بسرورٍ، وهم يخبطون أقدامهم بقوة على الأرض، وكأنهم فرقة عسكرية على وشك التحرك إلى جبهات القتال.

بعد المفاجأة والسلام، طرح الأستاذ محمد عدة أسئلة سريعة.

أخبره إبراهيم، أنه وصل إلى دمشق لزيارة أقرباء له، وأنه تعرض للسرقة، ففضل المبيت ليلة في الفُندُق حتى يحاول استعادة ما سُرق منه، ويذهب لأقربائه. اصطحبه الأستاذ، الذي رُبما لم يصدق قصة تلميذه السابق، لمركز الشرطة، وسمح له الضابط المناوب الذي سمع حكاية الفتى ويبدو أنه شكك بها، بالذهاب مع الأستاذ الذي يحظى باحترام لدى الحكومة لمكانته الحزبية، وبكفالته، على أن يعودا في اليوم التالي. نام إبراهيم تلك الليلة في الفُندُق، وقبل أن يستيقظ أحد، خرج وسأل عن موقف مركبات درعا. لقد قرر العودة إلى القُدس مهزوما، دون أن يحقق حُلمه. ركب في سيارة، ولاحظ أن الجالس في المقعد الأمامي، شخص يرتدي زياً عسكرياً مموهاً، ولم يكن يحتاج إلى غير ذلك، ليستعيد حُلمه، لم يدع عينيه تغيبان عن الفدائي، وعندما وصلت السيارة درعا، لحق به، تاركا مسافة بينهما. رآه يقطع سكة الحديد، فلحقه حتى البرية، وعندما رآه يدخل المُعسكر، تشجع وتقدم إلى الحارس، وأبلغه بثقة لا يعرف حتى الآن كيف أتته، بأنه يريد أن يتطوع.

اتصل الحارس بالهاتف، وتحدث مع المسئول في الداخل، الذي سأل عن عُمر إبراهيم، وعندما علم بأنه ما زال فتى، طلب منه عبر الحارس أن يعود عندما يصبح عمره ١٨ عاما، مشيرا إلى أن فلسطين تستطيع الانتظار حتى يكبر، وينضم إلى شرفاء الوطن الذين سيحررونها من نير مغتصبيها، أو ستكون على الأغلب قد تحررت، وسيكون لديه دور مهم في مرحلة ما بعد التحرير، وهي مرحلة بناء، لن تكون سهلة أبدا.

لم يقل إبراهيم للحارس، إنه جاء من القُدس، متسللا إلى الشام، لكي ينضم للفدائيين، ولو فعل ذلك، لرُبما اهتموا به وقدروا موقفه، هذا ما خطر له بعد ابتعاده عن المُعسكر، ومواصلة رحلته إلى الرمثا، التي وصلها وفي جيبه فقط عشرة قروش، دفعها أجرة الحافلة إلى إربد، ولم يدر ماذا يفعل؟ تشجع، وقصد سائق حافلة إربد- القُدس، وأخبره بأنه يريد العودة إلى القُدس، ولكنه ليس بحوزته أي قرش، سأله السائق عدة أسئلة ليتأكد من كلامه، أو ليفحص صدقه، ثم طلب منه أن يسير بمهلٍ على الشارع، لأنه لا يستطيع أن يُصعده الحافلة الآن تحت أعين موظفي مكتب شركة الحافلات، ولكنه سيلحقه بعد أن يحمل الركاب، وسيركبه في الحافلة. سار إبراهيم نحو ٥٠٠ متر، وانتظر الحافلة، وركب، وأجلسه السائق بجانبه على محرك الحافلة المغطى، وطلب منه أن يجمع الأجرة من الركاب، وهي مهمة أفرحته.

وصل القُدس ليلا، ولم يعرف ماذا يفعل، فقرر العودة إلى الدهيشة سيرا على الأقدام. في طلعة جبل المُكبر، شعر بالإرهاق، وبالتعب الذي سيؤلمه إن استمر في المشي، فقرر التطفل على شاحنة تنقل خضارا، لتحمله إلى الأمام عدة كيلومترات، حتى مفرق دير مار الياس، ومن هناك سيواصل السير على شارع القُدس- الخليل، بدون طلعات، وعندما أصبحت أمامه، قفز، وأمسك بأعلى الباب وفوجيء بأن شخصا يجلس بين الخضار، يباغته بسؤال:

- لماذا لم تؤشر للسائق؟

ثم طلب منه أن يعطيه يده، وسحبه إلى الشاحنة، وأجلسه

بجانبه، ومنحه عدة حبات من البندورة وأصابع الخيار، بعد أن رأى أثار الجوع والتعب ظاهرة على هذا الفتى التائه.

وطلب منه عندما يصلون إلى مُخيم الدهيشة، أن يخبره أين يرغب بالنزول، وكشف له عن خطته، سيرمي إصبع خيار على مقدمة الشاحنة فسيقف السائق لاستطلاع الأمر، وفي هذه الأثناء سينزله من الشاحنة بسرعة وهدوء، ودون أن يشعر السائق بالراكب المتطفل الغريب، وهذا ما حدث.

قصد منزلهم، ولكنه لم يعرف بماذا سيجيب أهله القلقين عليه. تسلق شجرة التوت أمام غرفتي المنزل المتواضع، وسمع أمه تقول لأبيه:

ـ فقط لو أعرف أين هو الآن؟

قفز عن الشجرة، وقال لوالدته:

ـ أنا هنا يمه..!

حضنته أمه، وتحسسته وهي تذرف الدموع، وسأله والده عن المكان الذي اختفى فيه، فلم يجب إلا بعبارة:

ـ أنا هنا..!

قال له والده:

ـ اذهب الآن، وغدا سنتحاسب..!

من معرفته بطبائع والده، عرف بأنه نجا هذه المرة، ولن ينال عقابا. اهتمت أمه بإعداد طعام سريع له، ليس مثل تناول الولد للطعام، يبرد قلب الأم القلقة على ابنها.

لم يفتح الوالد الموضوع مع إبراهيم، وبدا أنه قنع بعودته سالما،

ولكن بعد أسبوع، كان الوالد يأخذ عائلته وينتقل إلى مُخيم عقبة جبر في أريحا، لقد قدر والده أن ابنه تعرف على شلة سوء، وأن إنقاذه منها يكون بإبعاده عنها، وعن المُخيم، ولكن بالنسبة للاجيء تشرد عن أرضه لم يكن الإبعاد إلا إلى مُخيم جديد.

كان والده تحريريا مؤازرا، تربطه صداقة بالشيخ تقي الدين النبهاني، ويحلم مثل شيخه بالخلافة التي لا بد ستأتي في يومٍ لعله قريب، وتفتح فيه روما، كما تنبأ النبي محمد، ولكن الوالد الذي لم يتمتع مثل التحريريين، بملكة النقاش، وكان أُميا، لم يحاول يوما التأثير على أبنائه، إنما بدا لإبراهيم أن الأمر تغير قليلا في أريحا، عندما شعر بشباب تحريريين يتقربون منه، ويعرضون عليه مبادئهم التي لا تؤمن بالوطنية، ساخرين بأن الوطن من الطين، وإنما بالأممية الإسلامية، وأعلموه بأن الفتى ما أن يدخل مرحلة الحُلُم، حتى يصبح مكلفا بالسعي لإقامة خلافة راشدة على منهاج النبوة، وعندما سألهم كيف يمكن تحديد أن الشخص دخل مرحلة التكليف، نهض أحدهم وقال: إن الأمر أبسط مما تتصور، وأمسك ببنطاله، وسحبه ليلقي نظرة سريعة على العانة، وهو يقول: إذا نبت الشعر، أذن النفير.

شعر إبراهيم بالانكشاف، والاستلاب، والانتهاك، بينما كان شباب الحزب من حوله، الذين تأكدوا من حُلُمه، وبدوا مبتهجين وكأنهم امتلكوا سيطرة عليه وعلى جسده، يواصلون الحديث عن حُلُمهم، الذي أدرك إبراهيم أنه ليس حُلُمه، والذي لم يجده أيضا لدى الشيوعيين، والناصريين، والبعثيين، والقوميين.

في زنزانته الصحراوية، قرر إبراهيم، عندما يُفرج عنه، أن يخبر والديه، إذا ظلا على قيد الحياة، حكاية مغامرته، ويكشف لهما سره، الذي كتمه عنهما.

١٤

اعتبر الأسرى تصرف آشر تماديا في استخدام السلطة التي بيديه، وتعسفا مصدره غرور القُوة، واستفادة من التطورات السياسية في المنطقة، والمتمثلة فيما عدوه استسلام الرئيس السادات للعدُو، بدرجةٍ من البؤس، ليصفوه بالخيانة، وتقديرا لمعنى خروج مصر من الصراع الوجودي، فبالنسبة لهم فإن الصراع مع الاحتلال هو صراع وجود وليس صراع حدود، ورأوا في عزل إبراهيم، نذيرا لحملات قمع آتية.

من مصادر متابعة الأسرى للتطورات السياسية، اطلاعهم على الصحف العبرية، وتحليلات الصحافيين الإسرائيليين. لا تصلهم هذه الصحف بانتظام يومي، ويكتفون مضطرين، بما يصلهم مهربا من قسم الجنائيين اليهود، الذين يتمتعون بمزايا عديدة لا تقارن أبدا، بواقع الأسرى الفلسطينيين.

عندما تصل الصحف العبرية، تتولى لجنة خاصة من الأسرى مُهمة الترجمة، والتلخيص، والاستنتاج، والتحليل، ويتم عرض ذلك في الجلسات التنظيمية.

بمثل هذه الطريقة تابع الأسرى الانقلاب السياسي في إسرائيل، بوصول الليكود برئاسة مناحيم بيجن إلى الحكم، منهيا احتكار

حزب العمل، للسلطة، وكانوا على اطلاع على ردود الفعل المحلية والعالمية التي عبرت عن قلقها من وصول اليميني بيجن لسدة الحكم، وها هو الآن يستعد لاستقبال السادات، والبدء بمسيرة السلام.

وكان يصل الأسرى بانتظام، صحيفة (الأنباء) اليومية، التي أصدرتها سلطات الاحتلال باللغة العربية، والتي كانت فجة في الدعاية لسياسة الاحتلال، وبالنسبة للأسرى، فإنهم تعاملوا مع ما تنشره بحذر شديد.

طرح ممثل الأسرى أمام آشر، مطلب إعادة إبراهيم البسة إلى الغُرف، عند زملائه، خصوصا أنهم على قناعة بأنه لم يخطيء بشيء.

- أنا سمعته بأذني يصفنا بالفاشيست، رغم إبدائي تساهلا بشأن الأشقرية، هكذا تسمونها أليس كذلك، هههه.. الأشقرية لقد أحببت الاسم..أنتم العرب لديكم عقدكم الشقراء، تموتون في البياض، والشقرة، والعيون الزرق...!

شاهين الذي شغل حوافزه الأمنية الاستشعارية، إلى أقصى مدى لها، تجنب مجاراة آشر في هجومه (الأشقر) على العرب، وأعاد الحديث إلى ما يجب أن يكون عليه:

- إبراهيم لم يتكلم، ولو أراد أن يتكلم لتكلم في وجهك..!

- يعني أنا سمعي خف لدرجة عدم التمييز..!

وقف آشر، ترك مكتبه واتجه إلى ممثل الأسرى، الذي عرف بأن مُدير السجن على وشك إلقاء خُطبة من خُطبه التي يحالفه الحظ أنه

يجد مستمعين مرغمين على سماعها مثل الأسرى.

خاطب آشر شاهين، الذي بدا عليه التبرم لاستشعاره ما هو مقبل عليه المُدير:

ـ أنت تعلم بأننا نعيش ظروفا تاريخية، سنتصالح مع مصر، ومع الدول العربية الأخرى، ولكن بالتدريج. بعضها لنا علاقات معها بالسر، ولا شك أنك تعلم ذلك جيدا، وهذه العلاقات تمتد حتى قبل قيام دولتنا، وأكبر خطأ سترتكبونه، أن لا تسيروا في ركب السادات، الذي يحاول أن يجلب لكم حُكما ذاتيا، ولكنكم مثلما فعلت قياداتكم في السابق، متمسكون بكلمة لا، بالرفض، مع أنه ليس لديكم شيء تستندون عليه، لترفضوا.

وعندما لم يجد آشر علامات تأثر على وجه الأسير الواقف أمامه، والذي افترض أن عليه أن يكون ضعيفا أمام قوة مُدير السجن، غير لهجته:

ـ اسمع يا خبيبي، رُبما لن تسمع ما سأقوله لك من إسرائيلي آخر، ولكنني على قناعة بأنكم كشعب فلسطيني، مثلنا نحن اليهود، تشبهوننا ونشبهكم. أنتم يهود العرب، رغم ما تعرضتم له لسماعكم خُطب الحاج أمين، وعرفات، وجورج حبش، إلا أنكم تحملتم تماما مثلنا نحن اليهود، نحن وأنتم فقط من لنا قُدرة على التحمل في هذا الشرق اللعين المبني على رمال متحركة. أتعرف؟ لو أننا وأنتم نضع أيدينا بأيدي بعض، لتمكنا من الحكم والسيطرة على كُل هالعربان الجهلة في الشرق، ولحولناه شرق سلام، وأمن، وأمريكا جديدة، ولجاءت الأموال إلى هنا، تُبذر في هذه الأرض، فتزيد، وتنمو..!

شعر شاهين بأن عليه أن يرد على آشر، حتى يرضي غروره قليلا، وينهي ما جاء لأجله:

- كيف يمكن أن نلتقي نحن وأنتم، أنتم مُحتلون، أخذتم أرضنا، ونحن من وقع عليه الاحتلال، وأصبحنا شعبا مشردا، بدون أرض؟ وعلى فكرة السادات الذي أصبحتم مبسوطين منه وعليه، سيُقتل، كُل من يقفز في المجهول، سيسقط في رمال الشرق المتحركة، شعبه سيلفظه، هذا ليس سلاما، وإنما انحناء، واستسلام . وتفريط . السلام هو العدل..!

- يا خبيبي، نستطيع معا أن نصنع سلاما، فقط عليكم أن تتوقفوا عن الاستماع لعرفات والمخربين، أنتم الذين تسكنون في يهودا والسامرة، لا تعرفون كيف يعيش العرب في بلدانهم، اسألني أنا، إنهم يتمنون أن يعيشوا مثلكم، صحيح نحن نحتلكم، ولكننا ديمقراطيون. نحن احتلال ليبرالي، وواحة الديمقراطية في الشرق الأوسط، ها أنت تحكي كما تريدْ، دون أن أتعرض لك بسوء، رغم أنني هنا الناهي والآمر، كما تعلم، أملك السلطة بيدي، أستخدمها كما وكيفما أريد، أنقلها من يدٍ إلى أخرى، وأرميها كالساحر في الهواء، وأحدد أين تقع، ومتى، وكيف، أنا هنا ملك هذه الصحراء..!

- احتلال وديمُقراطية كيف؟ أنت لا تعرف معنى أن يكون الإنسان مُشردا، مُطرودا من أرضه، وبيته، ولا يستطيع العودة إليهما..!

- ومن قال لك يا خبيبي إنني لا أعرف؟ أنا أيضا تركت بيتي، وأرضي في العراق، ولكن علينا أن نتأقلم. الحياة لا ترجع للوراء.

- لم يجبرك أحد على ترك بلادك، لتأتي لتحتل أرض الناس.

- أولا نحن لم نترك أرضنا وبيوتنا بإرادتنا، العرب لا يريدوننا، لا يحبون اليهود، هل سمعت بليلة الفرهود؟ هربنا، إلى أرض أجدادنا، أرض إسرائيل، لنبني دولة تحمي كُل اليهود، كنت فتى عندما وصلنا إلى هنا، أتذكر كُل شيء، ولم يكن الأمر سهلا، مكثنا سنوات في معسكرات الاستيعاب (المعبروت)، فرضت الدولة برامجها التعليمية، وخياراتها الثقافية علينا، وضعتنا في (بوتقة الصهر)، وضعونا فيها لتشكلنا كما يبغون، صهرونا كما الحديد، حتى سُمح لنا، بالاندماج في المجتمع، الأشكناز العلمانيون أرادوا يهودا على شاكلتهم، قصوا سوالف الأولاد الصغار أبناء العائلات المتدينة، أرادوا خلال ثلاث سنوات في بيوت الصفيح، أن يقشطوا عن جلودنا ما علق بها، طوال مئات الأعوام، من أدران الشرق. لا توجد حياة سهلة، ولا توجد خيارات سهلة، تعلموا من تجاربنا، تعلموا أن تتأقلموا، لكي تُعلموا أولادكم، ليكبروا، ويعيشوا بسلامٍ وأمنٍ، وبدلا من العمليات التخريبية، اعملوا، نحن فتحنا لكم المجال للعمل في ورشنا، كي تربوا أولادكم بكرامة..!

- أنتم أفرغتم أراضينا الزراعية، وحولتم الفلاحين إلى أُجراء لديكم. الكرامة هي الكرامة الوطنية، لا كرامة لمن لا يتمسك بحقوقه..!

استمر الحوار بنفس الوتيرة، الذي يسميه ممثل الأسرى حوار الطُرشان، الذي جهد شاهين خلاله لكي يكون مقتصدا بالكلام، ولا

ينجر إلى مجاراة رغبة آشر التي لا تُقاوم في الحكي، والاستطراد، والاستعراض. لم يشك شاهين أبدا بأن آشر يعاني من رغبة قهرية مرضية للكلام، وعدم التوقف عنه.

في النهاية، وافق آشر، على إعادة إبراهيم البسة إلى الغُرفة، بعد خمسة أيام سيمضيها في العزل.

١٥

يعيد الأسير المعزول في الزنزانة، منولوجات أيام الاعتقال الأُولى في زنازين التحقيق، وصدمة القبض عليه، وخضوعه للتعذيب، ويتخيل دائما السيناريو البديل لكل ما حدث، والذي يبقيه هناك بعيدا حرا، خارج قبضة التحقيق والسجن. بالنسبة لإبراهيم البسة، عندما شارك في العملية الفدائية، وتسلل عبر نهر الأُردُن، لم يفكر إلا بالعودة سالما، وهذا كان احتمالا ضعيفا، أو أن يستشهد، ففي المرات السابقة، تمكن من الدخول إلى الأراضي المحتلة، ونفذ المهام المكلف بها، ومنها وصوله إلى مناجم النحاس في تمنة، في صحراء النقب، وضربها بقذائف مورتر، والعودة للأراضي الأُردُنية سالما، ولكن ليس سالما تماما.

كانوا ١٨ شخصا، مع جمال ودليلين من البدو، يعرفان الصحراء وينابيعها وتلالها ومواقعها، كأنها مرسومة على باطن اليد، يعرفان الأثر الذي تركته الحيوانات والبني آدميين، على الرمال، ويستطيعان اقتفائه بكل مهارة، حتى لو أبان صاحبه قدرة على التمويه، ويستطيعان التمييز بين أثر الرجل، وأثر المرأة، وبين

طبعة رجل شيهم * وطبعة رجل قط، ولديهما القدرة على تتبع مسارات كل من ترك طبعة على رملٍ، أو حجرٍ، أو صخرةٍ في الصحراء.

تنبه إبراهيم لثقبٍ في حذائه، تتسرب منه الرمال، وتمتزج مع عرق أصابع القدمين، فيشعر بلسعات نارية، تخلى عن الحذاء وسار حافيا، متحملا الصعاب من أجل هدفه السامي.

ولكنه هذه المرة، نُقل جريحا، بعد استشهاد رفاقه في كمين لقوات الاحتلال، وجرب رجال الشاباك مساومته على الإدلاء باعترافات، مقابل تلقي العلاج، ولعلهم أدركوا أخيرا أن مثل هذه المساومات لا تفيد مع شخص عنيد مثله، وبعد خروجه من المستشفى ونقله إلى زنازين التحقيق، اختبر استغلال المحققين، لمكامن ضعفه الجسدي، واستهداف مكان إصابته، للحصول على معلومات عن الفدائيين الذين عبروا نهر الأُردُن معهم، وأولئك الموجودين خلف النهر، في قواعدهم، وتعرض لتعذيب شديد، ويبدو أنهم جربوا أسلوباً جديداً معه، بوضع البيض المسلوق تحت إبطيه، وما زالت آثار الحروق التى سببها البيض ظاهرة على ذلك الجزء من جسده، ويمكنه الآن في زنزانته أن يشعر بلسعات البيض الساخن الحارقة.

هل كان يمكن أن تكون الأمور بالنسبة له أفضل مما حدث؟ أن تنجح المهمة التي نزل ورفاقه من أجلها، والعودة، أو الاستشهاد، أما السجن في هذه الصحراء، وليالي الذباب والبعوض والحر

* حيوان له أشواك يعيش فى فلسطين.

والملل، واستهداف الكرامة، وتذويب الذات، إلى وقت غير معلوم، فهو ما لم يرغب به أبدا.

يتذكر قريته صرعة، على إحدى تلال القُدس، التي هُجر سكانها القلائل، إلى القرى المجاورة، واستقروا مرحليا عند سكة الحديد في وادي الصرار، مع خلق كُثر، من القرى الأخرى، كما أخبره والده، ومنها أشوع، قريتهم الأم، التي هجروها قبل عقود طويلة إلى جارتها صرعة.

سبب الهجرة القديمة لا يظل هو السبب، يتغير نسبيا، وتتحور الحكايات ويُضاف إليها. يقال بأن طُوشة حدثت بين عائلتهم وعائلة أخرى، وعلى الأغلب بسبب امرأة. قتلت العائلة الأخرى سبعة منهم وكلب شيخ العشيرة، فردوا بقتل سبعة من عشيرة الخصم، ولكن بدون كلب الشيخ، وأمام هذا العار الذي لن يمحى من صفحات التاريخ، والانتقام غير المتساوي، رحلوا إلى القرية المجاورة صرعة، لينسجوا مع عائلات أخرى، حكاية جديدة في تاريخ القرية القديم، الذي يظهر في البقايا الأثرية. لا توجد قرية في تلال القُدس، وفي فلسطين، إلا تحوي مثل هذه الآثار لأقوامٍ دبوا عليها في يومٍ ما، واختفوا، هُجروا، أو هجروها، ليأتي غيرهم، أو لا يأتون.

قُصفت القرية من قبل العصابات الصهيونية، فخرج الأهالي، إلى محطة القطار في عرتوف، تجمع مُهجرون من قرى أخرى في المُخيم المؤقت في وادي الصرار. في النهار يعود الأهالي إلى القرية، فالوقت وقت حصيدة، ثم يعودون ليلا إلى وادي الصرار،

دخل رمضان، وصاموا وتسحروا، وهم يرون، منازلهم يتم تفجيرها، والجيوش العربية تتقهقر.

البنات تعرضن للتحرش، التحرش غير الواضح من بقايا الجنود العرب، ومن الرجال أرباب العائلات اللاجئة. من بيده السلطة، يحتاج لترسيخ سلطته للاعتراف بها عن طريق النساء، العنصر الأضعف في الصراع الوجودي في لحظات تاريخية فارقة.

تذكر إبراهيم حديث والده عن رجل يعرفه كيف غادر خلال الأحداث ومعه ثلاث من شقيقاته لإيصالهم إلى بر الأمان قبل دخول اليهود، خشية اغتصابهن، هاجس الاغتصاب كان سائدا، وشعار الناس: "العرض قبل الأرض"، وكان يجادل والده مدفوعا بحماسة، مؤكدا له أن الأرض هي العرض والكرامة والحُرية وكل شيء. لقد خسرتم الأرض ولم تنقذوا العرض.

كلمات والده تغزوه في زنزانته: "لا تظلمنا يا ابني، الرعب متوارث، كل احتلال جاء اغتصب نساءنا وسباهن، توارث الناس الأرض وذكريات الاعتداءات على النساء، وحتى شيوخ قرى الكراسي، من كان منهم يريد فلاحة يأخذها، وجاء البريطانيون، ووضعوا أعينهم على المسيحيات، واليهوديات، والفلاحات، كم واحدة اغتصبت وكتم الفلاحون خبرها أو كتموا نفسها؟ لم يريدوا الفضيحة، وكم واحدة تخلصوا منها بطريقة أو بأخرى".

قتل المستوطنون اليهود، أي مُتسلل من أهالي القرية إلى قريته التي لم تعد قريته، وأقاموا كيبوتس باسم تسورعة على التلة التي شمخ عليها بيت المُختار الحجري، والذي تحول إلى مطعم جماعي

لأفراد الكيبوتس، ولم يتوقف هؤلاء أبدا، ليسألوا عمن كان قبلهم في المكان، واختفوا هكذا فجأة وبسرعة، وكأن ريحا ذرتهم، وأرضا ابتلعتهم. لاحقا انتقل الكيبوتس بعيدا إلى الجنوب من القرية المهدمة، التي زُرعت بالأشجار لتغطية الركام، وبعد سنوات هُدم منزل المُختار، وبنوا مكانه مطلا، يكشف ما حوله من طبيعة خلابة، ومشهد سويسري. أشجار من البلاد الباردة، تُغطي ركام القرى العربية التي كانت، وكيبوتسات قرميدية الأسطح، على الطراز الأوروبي.

غابات فلسطين تشبهها، بلوطية في معظمها، وما سلم من الاحتلالات المتعاقبة منها، وهي قليلة، ما زالت أثارها باقية. كره العثمانيون الأشجار، فقصوها لخدمة المجهود الحربي، وجن البلوط إبراهيم باشا المصري، الذي جُن أصلا من فلاحي الجبال، فدمر الغابات وهو يلاحقهم.

بالنسبة للمحتلين الجدد، ليس هناك حلا أفضل من تغطية ركام المنازل بالأحراش، يمكن للمستوطنين الجدد أن ينعموا بمستوطناتهم القريبة من القرى المدمرة، بنومٍ بدون أشباح الناس الذين عمروها وسكنوها، فالأشجار الحرجية الكثيفة كفيلة بحبس أنفاسها، ببركة المشهد السويسري.

هدموا المسجد، وأبقوا على مقام الشيخ الصامت، وحولوه إلى مقام شمشون الجبار، ومقام الشيخ غريب سموه باسم دان، واستعادوا اسم القرية القديم تسورعة، وبدأوا حياة جديدة في

تاريخ المكان، بينما كان أصحابه هناك في المخيمات، يغالبون حياة أخرى ويأملون، ويألمون.

ولد إبراهيم في مُخيم الدهيشة، وعاش في مُخيم عقبة جبر، ونزح مع عائلته، بعد حرب الأيام الستة، إلى مُخيم شرق النهر، وانضم للفدائيين، وشارك في معركة الكرامة، ووجد نفسه يعثر على اللحظة التي ستتوج كُل حكايات الأهل عن صرعة، وولي الله الصامت، والشيخ غريب، والتشريد المهين.

وها هو الآن في زنزانة معزولا عن العالم، بسبب قطة تائهة، تخلت عن حريتها طواعية، من أجل أمان كاذب.

تخيل نفسه يطير من هذه الزنزانة، ويحُط في قريته صرعة التي أصبحت غابة، تطمس ما تخفيه من ذكريات، وحقول، ومنازل، وحكايات حب وكره وشغف وانتقام وطوش كبيرة وصغيرة، وقبور وعظام متناثرة، يريد أن يوقظ أشباح الأجداد، وهو أكثر ما يخيف المستوطنين الجدد. في قرية عين حوض، هرب المستوطنون الجدد الذين سكنوا منازلها الجميلة التي لم تُدمر، بعد أن هاجمتهم أشباح ناسها، حتى تم تحويلها إلى قرية للفنانين الذين أثبتوا أنهم أقل حساسية تجاه ماضي المنازل.

أراد أن يقف أمام غابتهم التي تخفي قريته، ويرمي عود ثقاب، لتتناثر الأشجار حمما، ماذا سيحصل للأشباح؟ في قصة كاتبهم أ.ب يهشوع (أمام الغابات) التي قرأها بالعبرية في السجن، يكشف حريق الغابة، عن قرية عربية مدمرة: "ولكن غابتنا تغطي، كيف يمكن قول ذلك قرية مدمرة. قرية؟ قرية صغيرة، القرية المدفونة تحت

الأشجار، ومن داخل الدخان، من داخل الضباب تظهر أمامنا القرية الصغيرة".

النار تتغلب على صنوبر وسرو البلاد الباردة، تكشف، وتُطهر، وتظهر الخداع السويسري..!

١٦

قبل ثلاثة أعوام فوجيء إبراهيم باستدعاء من الإدارة لمقابلة، جزع. من هذا الذي يطلب مقابلتي؟ ألم ينه محققو الشاباك التحقيق معي؟ هل أمسكوا بفدائيين اعترفوا علي، أو ورد اسمي في محاضر التحقيق معهم؟ أو رُبما سيعيدون علي تلك "السيرة" الأولى.

في أشهر سجنه الأولى، وبعد انتهاء التحقيق المرير معه، كانوا يطلبونه لتحقيقٍ من نوع آخر.

الكابتن لورنس، كما يسمي محقق الشاباك نفسه، عندما كان يطلبه في ساعات الصباح يغلق عليهما المكتب، ويطلب القهوة لكليهما، متجاهلا اعتذار إبراهيم عن شربها، رغم أن رائحتها تخترق خياشيمه وتنتشر في جسمه، فيشعر بخدر، يليه صداع في الرأس التي تستشعر مجساته رائحة القهوة التي غابت عنه فترة طويلة، وها هي تعود بدون استئذان، ولكن إبراهيم يقاوم أوامر الدماغ، واللسان المتلهف على تذوق المشروب الأسمر الذي طالما سمع والده يطرح عليه حزورة، كلما حضرت، مختبرا ذكاء طفله:

أنا المحبوبة السمرا

أجلى في الفناجين

وعود الهند لي عطر
وذكري شاع في الصين

وفي كل مرة كان على إبراهيم أن يفكر من هي هذه المحبوبة السمراء التي تشغل ذهن الأب، ويعرف الإجابة بعد أن يتلقى دعما، على شكل إيحاءات من الأم.

هل كان عقله الصغير سريع النسيان فعلا، أم أنه كان لا يريد أن يفسد على الأب متعة رؤيته طفله يستكشف ما ليس عنده؟

مثل هذه الأسئلة مهمة له الآن، وهو يعيد استكشاف ماضيه وعلاقاته مع ناسه في الخارج، الذين يشعر بأن بينهم وبينه صحارى وبحار، سيكون من الصعب قطعها، وليس له في سجنه سوى التأمل بحياته خارجه.

يأخذ لورنس سجينه إبراهيم، بحديثٍ في الثقافة والموسيقى والأدب والفنون التشكيلية، وكأنه يختبر ثقافة إبراهيم المتنبه، كي لا يصبح ضحية الانقياد، فينسى المسافة الواجب تحديدها بين الأسير والمحقق، ولكن إلى أي مدى نجح؟ عندما يتذكر الأمر بينه وبين نفسه يعجز عن الإجابة وتختلط عليه الوقائع بالخيال، وبملامح البطولة التي يضفيها الأسير على نفسه بأثرٍ رجعي، كما يحدث للأسرى عندما يتحدث أحدهم عن ما جرى له في التحقيق، فيجد نفسه منساقا إلى ذكر أحاديث ونقاشات بطولية مع المحقق، لقنه فيها ما يجب عن اغتصاب حقوق الآخرين، واحتلال بلدهم، وتشريد ناسه، ولكنها ليست سوى تخيلات وأحلام يقظة لا يمكن أن تكون قد حدثت في أجواء الرعب والتعذيب، حيث يلوذ الأسير بالصمت

أطول فترة ممكنة، ويكون مقتصدا في الكلام، وأي محاولة منه لإهانة المحقق، فسيكون الثمن باهظا، كما حدث مع الطالب الثانوي مازن، الذي بصق في وجه المحقق عندما شتم الأخير والده، فجُر مازن ليختبر أنواعا أخرى من التعذيب. أجلسوه على زجاجة اخترقته، ولم يخرج من الزنازين، إلا وأطرافه جميعها لا تكف عن الارتعاش، ولم يُقدم له أي علاج طبي طوال الفترة التي قضاها مع زملائه في الغُرف، حتى قضى أخيرا في زنزانة انفرادية زجوه فيها، وليس لدى الأسرى شك بأنه صُفي ليكون مثالا لزملائه.

(لورنس اليهود) كما يسميه إبراهيم، جاء في ظروفٍ مختلفة، التحقيق انتهى معه، وحوكم، وأخذت حياته في السجن روتينية يوميات أسير نموذجي: انتظار، ومكابدات، وقراءة، وآمال، واحتجاجات، وإضرابات، مما يجعل تغيير قواعد اللعبة أمرا واقعا بين المحقق وسجينه. قال لورنس لسجينه:

- اعتبر جلساتنا سوالف..لا تلزم أحدا..!

سمى لورنس اللقاءات التي ستتوالى مع إبراهيم جلسات، محض نقاشات بين اثنين مثقفين متعلمين من طرفي الصراع، يقلقهما استمراره، وفي كل جلسة يكرر لورنس نفس ما يقوله وإنما بأسلوب مختلف:

- نحن في إسرائيل، جنودا، ومواطنين، ومخابرات، وأكاديميين، وعاهرات، وأبناء ليل، نعلم بأن فلسطين لكم، مدنكم لكم، كانت مسكونة عندما أتيناها، عسقلان، ويافا، وأسدود، وبئر السبع، وغيرها، ولكننا لا يمكن أن نعلن ذلك حتى لو بين أنفسنا، إلا أننا

في قرارة نفوسنا، في أعماقها، نعلم ذلك علم اليقين، وبقدر هذا العلم، نعلم أنه سيأتي وقت علينا سنضطر فيه أن نجلس معكم لنتفاوض ونحل ما بيننا من إشكالات، ولكن من نفاوض؟ هل سنفاوض المخاتير، وبقايا النظام الملكي، من وجهاء وأعيان لا ذمة لديهم ولا ضمير!؟ نريد مفاوضين مثقفين، مطلعين، ومخلصين لوطنهم ولمجتمعهم، وليسوا، عذرا، فلاحين غير متعلمين مثل آبائكم وأجدادكم، يمكن أن يُضحك عليهم.

يتوقف لورنس بين فقرات كلامه، وقفات محسوبة، وهو ينظر مباشرة في عيني إبراهيم، ليختبر وقع كلامه على ملامحه، ثم يتابع:

ـ لماذا لا تكون واحدا من مفاوضينا المستقبلين؟ أستطيع الآن إرسالك إلى بيروت، لتلتحق بالجامعة الأميركية، وتدرس على حسابنا..!

ـ تريدني عميلا؟

ـ معاذ الله، كل ما في الأمر أن تتحدث، وأنت تدرس وتُحصل درجات علمية، ما ستقتنع به، عن كيف يجب أن يكون صراعكم معنا حضاريا وليس همجيا، كخطف الطائرات، والعمليات التخريبية، وقتل المدنيين، مما يُسوء صورتكم أمام العالم..!

ـ وماذا أيضا؟

يتلقف لورنس طرف الخيط الذي مده له إبراهيم فورا:

ـ إحساسا منك بالمسؤولية، عليك إذا صادفت شخصا يريد أن ينضم للمخربين في جنوب لبنان، انصحه أن يتخذ دربا آخرا في الحياة، كإكمال تعليمه ليخدم وطنه بشكل أفضل.

مثل هذا الكلام الذي لم يكل لورنس من ترداده، مبديا حرصه على إبراهيم، الذي لا يجب أن يتبهدل في السجون بين المساجين الأقل تعليما وثقافة، والذين يذهبون حطبا في صراع سيقطف ثمنه لاحقا الكبار من المتنفذين بين المخربين، لم يحير إبراهيم إلا قليلا، وبدا متنبها لما اعتبرها خطط الشاباك الجهنمية لصنع قيادات فلسطينية على هوى الاحتلال.

وكان رد إبراهيم:

- لن أكون عميلا لكم ولا لغيركم..!

- لا نريدك عميلا..!

- تريدونني متعاونا..؟!!

- ولا متعاونا..!

- هل تريدونني متواطئاً..؟!

- أرجوك..أرجوك..! لا تقل هذه الكلمة، نريد الخير لك ولشعبك، نريد السلام بيننا، وليس مثل المُثقفين المتعلمين من يمكن صنع السلام معهم، ووقف القتل..!

وعندما مل لورنس بعد عدة جلسات، من إبراهيم، تمكن الأخير من أن يحظى بسلامٍ مع النفس خلف جدران السجن الصحراوي، رغم أنه فهم تهديد لورنس المبطن في آخر لقاء بينهم، حول عدم علمه بالخسارة التي سيخسرها برفض عرض الشاباك السخي، على أنه قد يكون خسارة حياته بطريقة من الطرق على يد عميل في السجن.

١٧

..وبينما الشُرطي ينتظر خروجه من الغُرفة، تشاور إبراهيم سريعا مع ممثل اللجنة النضالية في الغُرفة، حول هذا الاستدعاء المفاجيء، وآخر ما سمعه من زميله:

ـ أهم شيء أن تعرف ماذا يريدون منك ومنا، بعهم ولا تشتري منهم..!

اصطحبه الشُرطي، الذي فتح أبواباً عدة بمفاتيحه التي يعلقها على حزامه، إلى غُرفة المُدير، ليجد آشر، وشخصا آخر يجلسان في الغُرفة متقابلين، وبينهما طاولة صغيرة وُضع عليها صحن أو أكثر يحوي بسكويت وشوكولاتة ومكسرات.

طلب آشر وهو يعود إلى كرسيه خلف المكتب، من إبراهيم الجلوس مكانه مقابل الضيف، مُعرفا به:

ـ هذا أستاذ في جامعة تل أبيب، وهو عالم آثار معروف، وأحب أن يُدردش معك..!

من هذا الإسرائيلي الذي يريد أن يُدردش معي؟ وهل أراد الشاباك أن يتخفى عميله خلف صفة عالم آثار؟ ولماذا أستاذ جامعي وعالم آثار؟

قطع الضيف على إبراهيم أسئلته الداخلية وحيرته:

ـ أهلا بك أخ إبراهيم، أنا البروفيسور شمعون من جامعة تل أبيب كما قال السيد آشر، أشرفت على عدة مواسم حفريات أثرية في جبال القُدس، ومنها قريتك صرعة، علمتُ بالمصادفة أن سجينا هنا، ليس بعيدا عن مكان سكناي في بئر السبع، من صرعة...!

- كيف عرفت بأنني هنا وبأنني من صرعة؟

- عن طريق المصادفة، التقيت عجوزا تسكن في مُخيم قلنديا، تأتي بشكل مستمر إلى صرعة، أقصد إلى ما تبقى منها، تُلقط زعتر ونباتات أخرى، وحدثتني عن تركككم للقرية، وعاداتكم، والعائلات التي سكنتها وأصولها، وأخبرتني عن ابن من القرية اعتقل خلال تسلله للبلاد، وذكرت لي اسمك، ومن خلال معارفي في سُلطة السجون، علمت أنك هنا، وأخذت إذنا للحديث معك..!

ثم مازحا:

- ناس قريتك يعتبرونك بطلا..!

لم يكن لدى إبراهيم مزاج للمزاح:

- ولكن لم تأخذ إذني..؟

- ها أنا افعل، أرغب بمعلومات عن آثار القرية من شخص متعلم مثلك، وخصوصا عن مقام شمشون، إذا لم يكن لديك أي مانع، أعلم بأنك مثقف، قرأت عشرات الكتب في السجن، وبعدة لغات ويمكن أن تفيدني، حتى لو بذكر شذرات من حكايات وأساطير قد تعتقد بأنها غير مهمة..!

قاطع آشر حديث البروفيسور، الذي بدا متدفقا في الكلام، وكأنه بحاجة ملحة إلى أية معلومة، ويريد أن يستغل كل وقت اللقاء، وعزم على إبراهيم، ليأكل مما تحويه الصحون أمامهم، مشيرا إلى أن القهوة في طريقها إلى المكتب.

حاول إبراهيم أن يستوعب ما يحدث وقرر أن يستخلص أكبر قدر من المعلومات، بينما واصل شمعون الحديث:

ـ أنا لا أجبرك على الحديث، وأنت لست مُلزما بالحكي معي، ولكن هدفي فقط هو خدمة العلم، والكشف أكثر عن تاريخ القرية القديم..!

ـ قلت شمشون؟ تقصد شمشون الجبار؟ ما أعرفه أنه لا يوجد مقام لشمشون في القرية، لم أسمع إلا عن قبر الشيخ الصامت، وهو ولي من أولياء الله الصالحين، لا نعرف عنه الكثير..!

ـ ما تسمونه الصامت هو مقام يضم قبرين، واحد لشمشون، والثاني لوالده منوح، حسب العهد القديم، فإن شمشون ولد في صرعة في وقت كان الرب قد غضب على بني إسرائيل الذين عملوا الشر في عينه، فدفعهم ليد الفلسطينيين أربعين سنة. جاء ملاك الرب لامرأة منوح العاقر، وأخبرها، بأنها ستلد ابنا، وحذرها من شرب الخمر، أو أي مُسكر، وأن لا تأكل شيئا نجسا، وأن الصبي سيكون نذيرا لله منذ وجوده في بطنها حتى موته، وهو الذي سيخلص بني إسرائيل من يد الفلسطينيين.

لم يمنع إبراهيم نفسه من الابتسام، ويبدو أنه انزلق في شباك الانقياد، ولكن ماذا يهم؟ وما الخطورة الذي سيشكلها هذا الآثاري المهتم بأمورٍ غريبة؟

شرب إبراهيم القهوة، واستمع مليا لشمعون، بينما كان آشر صامتا، مستمتعا بالحديث وبقصص الأجداد في التوراة، وبالمزيد من المعلومات عن ضريح دان بن يعقوب، الذي كان بالنسبة لأهالي صرعة، والقرى المجاورة، مثل أشوع وعسلين، مجرد ضريح للشيخ غريب، الذي لا يعرفون عنه شيئا.

قال شمعون ساخرا:

ـ ضريحا الصامت وغريب، أخذناهما غنائم حرب، لم يحتاج الكيبوتسيون الأوائل للكثير، ليبدأوا مرحلة جديدة من تاريخ صرعة المديد، أخذوا الأرض، ودار المُختار، والدين الشعبي، الآن ضريح دان بن يعقوب هو من أماكن الحج الأكثر شعبية في إسرائيل، عُبدت الطرق إليه، وسُيرت الحافلات، في منتصف ليلة أول يوم في الشهر القمري، وفي ليلة البدر، تدب الحياة في الضريح، يصلي فيه العشرات صلاة تيكون (صلاة خاصة) من أجل شفاء المرضى، وللإنجاب، والرزق، والتوفيق بزوجة صالحة، وليرضى الله على الأحياء، وعلى الموتى، وليوفق أبناء العائلة، ويهدي الأولاد والأزواج والزوجات، والجيران، إلى طريق الصلاح. الكل يصلي، ويحرك جسده، ومنهم من ينفخ في الشوفار (قرن كبش)، وهذا مفضل للجميع.. !

واصل شمعون السخرية، بينما لاذ آشر بالصمت، تعبيرا عن عدم رضاه النسبي، على الأقل عن مجرى الحديث:

ـ قبر الشيخ غريب، حُدد أولا بأنه قبر شمشون، وبعد سنوات، رأى حاخام في المنام، أنه ضريح دان بن يعقوب، فتم نقل شمشون ليحل محل الشيخ الصامت، ولأن الضريح يضم قبرين، فإن القبر الثاني هو للمبجل منوح، والد القاضي الجبار، الذي حارب الفلسطينيين، ولكنه أحب بناتهم، والحب كما تقولون في الأمثال العربية: قتال..! من جبال القُدس حتى الساحل، تنتشر قبور أبناء يعقوب الإسلامية، صحيح أننا أهملناها في البداية، إلا أننا عُدنا

لاستكمال المهمة، استولينا على جغرافيتكم الإسلامية العربية، وأنتم سبقتوننا، وورثتم المقامات البيزنطية، وهكذا هي الحياة في بلاد الله المُقدسة.

حاول آشر أن يتدخل في الحديث مشيرا إلى أن تقديس الإسلام لأنبياء اليهود، يدل على التقارب بين الإسلام واليهودية، وأن الله عندما يرسل أنبياء، فإنه يرسلهم لجميع أبناء إبراهيم.

لم يهتم شمعون كثيرا بكلام آشر، وخاطب إبراهيم:

- عليك أن تعلم بأن أية معلومة يمكن أن تتذكرها، سمعتها من والديك عن صرعة، ستكون مفيدة لإعادة بناء الرواية عنها.

وحدثه شمعون عن واقع القرية الآن، وهدم منزل المُختار، والمتنزه الذي أُقيم على أنقاض القرية، وأخبره أنه التقى مع فتى من المستوطنة، يجمع شهادات من قطنوا في المكان من الأهالي العرب، لأنه يؤمن بالسلام، وبحقوق الناس، وكذلك يجمع شهادات من سكان الكيبوتس الأوائل، ليكتب رواية متوازنة عن ما حدث في عام ١٩٤٨م، وليست رواية منتصرين.

أبو عبدو البعل
https://facebook.com/groups/abuab/

- لو تعلم كم خسرت هذا البلاد من روايات المنتصرين. المسلمون، والصليبيون، والعثمانيون، والمماليك، والفاطميون، والآن تعاني من حكايات يهود هذا الزمن، الجميع كتب روايات منتصرين، ولا تتوافر لدينا روايات الآخرين الذين هُزموا. هل يُعقل أن يكون تاريخ هذه البلاد الدموي، كله أمجاد، وأكاليل نصر؟

لم يشأ إبراهيم أن يناقش رجلا مشكوكا في هويته، جاء إليه ليحدثه عن خرافات شمشون الجبار، ومقام الصامت، وامرأة عجوز

قابلها، عن الحقوق، والتهجير، والكيبوتسات، واغتصاب الأرض.

وانتقل الحديث بسلاسة، وبشكلٍ لا يستطيع إبراهيم تذكر تتابعه، إلى موضوع جديد عليه، فهم منه أن عالم الآثار الضيف الغريب، صاحب اكتشاف مثير على الأقل بالنسبة لآشر، يتعلق باكتشاف جبل موسى، الذي تلقى عليه كليم الله، ألواح الرب في النقب وليس في سيناء.

بدا أن آشر وضيفه، نسيا وجود إبراهيم بينهما، وأخذا يتناقشان حول الأمر، فبدأ شمعون يتحدث عن فخره بتحديده لجبل العديد الذي يسميه الإسرائيليون (كركوم) في النقب، باعتباره الجبل المُقدس المعروف تقليديا أنه موجود في صحراء سيناء.

لاحقا، بحث إبراهيم عن معلومات عن جبل العديد، وعرف بأنه تنتشر على سفوحه القبور القديمة، وتتناثر حوله نقوش مُهمة لحيوانات وزواحف ورموز دينية وغيرها. والتي تبلغ نحو ٤٠ ألف لوحة فنية، سجل عليها من مروا بالمكان من العصور الحجرية حتى الفترة الإسلامية، ما يعبر عنهم.

تحدث شمعون عن رحلته مع جبل العديد، ومشاركته في حفريات في الجبل والوديان المحيطة، وعن العثور على آثار تعود للعصر الحجري القديم، والعصور البُرونزية، ومن بينها معابد، وأعمدة، وبقايا قرى ومبانٍ، وتبين لشمعون بأن الجبل كان مركز عبادة مهماً جدا للأمم السابقة، وخلال النقاش بين آشر وشمعون، بدا أن الأخير قد تنبه لوجود إبراهيم، فقال محاولا تقريب النقاش إليه:

ـ كان الجبل بمثابة مكة لتلك الشعوب، على مدار حقب ممتدة.

اعترض آشر بشدة على طروحات شمعون، وقال له، إن علماء آثار إسرائيليين، ذكر أسماءهم، قالوا إن الدلائل الأثرية التي عُثر عليها على الجبل، لا تتوافق مع الفترة التاريخية لخروج بني إسرائيل المفترض من مصر.

فأجاب شمعون ضاحكا:

- لا بد من التأويل يا آشر، لقد حاججت المعترضين، واقترحت بأن فترة الخروج حدثت فعلا ولكنها مبكرة بنحو ألف عام عما حُدد سابقا. أي ما بين ٢٢٠٠ و٢٠٠٠ قبل الميلاد. وليس ١٣١٣ قبل الميلاد. وفقا لما هو سائد في الأدبيات الكتابية.

ونظر فجأة إلى إبراهيم، وخاطبه متسائلا، منهيا نقاشه مع آشر:

- هل إذا احتجت إليك مرة أخرى، وحصلت على تصريح من سُلطة السجون، أستطيع مقابلتك؟

- لا أظن بأن لدي ما أقوله عن قريتي، التي ولدت خارجها لاجئا مشردا، وحرمتموني من أن أدب عليها، أنت تعرف أكثر مني عنها..! وعندما قررت العودة إليها اعتقلتموني هنا..!

١٨

أنا شمشون الجبار، لم أكن إلا شخصا عاديا، لست عملاقا، وإنما بشرا جامحا، مغامرا في الحب والحرب. تحديت ضعف البشر المحبوسين بإرادتهم في أجسادهم وعقائد أقوامهم، اقتلعتُ

جبلين وحككت أحدهما بالآخر لإشعال النار، ولكن نار التحرر من الضعف لم تصمد طويلا في قلوب ناسي.

اختار الرب أن يبذرني في رحم أمي زلبونية العاقر، المسكينة التي وصفها القاضي ابصان بالبغلة، والتي لم يدعُوها مع والدي منوح للولائم المائة وعشرين التي أقامها احتفاء بزفاف أبنائه الستين، وكان يقول:

- هذه البغلة العقيم لن تنجب ولن تدعوني لزفاف..!

ولكن للرب رأيا آخر، نزل إلى زلبونية المسكنية من السماء، واستمع لاستفسارات والدي، الذي أراد الاطمئنان على شرف امرأته، ونقاء السلالة، ثم صعد إلى بيته السماوي، من دُخان المذبح. الأرباب يحبون تقدمات البشر، وروائح المذابح.

الرب أرادني له، وقومي نبذوني، من يكون الرب أباه، سينبذه عبيد الرب. سيبغضونني أنا الذي غرفت العسل من فم الأسد، لأنني أحببت النساء، نساء الأغراب الفلسطينيات، وهذا محظور، أحببتُ دليلة الفلسطينية عندما رأيتها في وادي الصرار، رغم حروبي مع قومها، الحب ليس خيارا بشريا، وإنما قدرا من الرب الذي اختارني بذرة، بذرها في رحم عاقر. وضعت المشاعل في أذناب ثلاثمائة ثعلب، وأطلقتها في حقول الفلسطينيين، فأحرقت الأشجار المثمرة، قيدني قومي وسلموني لأعدائي الفلسطينيين، ولكن الرب كان معي دائما، فأنا عطيته التي أفسدها العشق.

هل أحبتني دليلة الغانية الرقيقة الساحرة، قوية الإرادة، هادئة الأعصاب، المخادعة اللعينة؟ لا أعرف، لقد باعتني لقومها مقابل

الشواقل الفضية، علمت مصدر ضعفي بعد أن كشفت لها كُل قلبي، وضعت رأسي على ركبتيها الجميلتين، وقصت سبعا من خصلات شعري، خلعتُ بوابة المعبد، وهدمته علي وعلى أعدائي، طلبت من ربي أن يمدني بالقوة ليميتني مع الفلسطينيين، قوم زوجتي الأُولى، وعشيقتي دليلة.

قومي الذين كرهوني، جعلوني عملاقا، ليبرروا كرههم، والكهنة الذين نبذوني، ضخموا صورتي، قالوا إن الرب جعل المسافة بين كتفي تبلغ ٦٠ شبرا، وبأن روحه تجلت في شعري وبأنه ينتصب واقفا ويصدر صوتا يشبه قرع الأجراس، وبأن خطوتي الواحدة تساوي المسافة بين صرعة واشتاؤل، وبأنني حققت أول انتصاراتي بعظمة فك الحمار الذي ركبه إبراهيم إلى جبل الموريا، وبأنني عندما كنت على شفا الموت بعد إحدى انتصاراتي على الفلسطينيين كدتُ أموت عطشا فتدفق الماء زلالا من عظمة فك الحمار المُقدسة بقدرة الرب القادر.

أنا لست إلا مقاتلا بعباءة حمراء، وحزام أحمر، وشعر مرسل مقصوص، أضعفني الحب، وأدمتني الشهوة، خلقني الله شهوانيا، ومن يدع عينيه تضللانه يفقدهما، وحتى وأنا في السجن ظللت أمارس شهوانيتي، بمساعدة أعدائي الفلسطينيين الذين شجعوني على معاشرة بناتهم، ليحظوا بذرية بمثل قوتي، وبعد موتي بعشرين عاما، تجرأ الفلسطينيون على محاربة قومي، حكايتي ملأت الأفاق، وحتى يوم الناس هذا، يتذكرني الناس في السينما، والموسيقى،

والفن التشكيلي، والروايات، والأشعار. وليس وحدي، وإنما ودليلة معي، العاشق والمعشوقة، البطل والخائنة، القُوة، والضعف، والحيلة، والرشى، عطية الرب، وامرأة الجنس، عطية الرجس.

هل لو أنني لم أحبها، ولم تخدعني، سيذكرني الناس حتى الآن؟

أنا منفذ أول عملية انتحارية في التاريخ، ضد الأعداء..! أنا الذي ألهمكم اسم عملية (ثعالب شمشون) لتحتلوا بئر السبع، وتطردوا أهلها، أعدائي القدامى، وتستعيدوا قبري وقبر أبي، وتسجنوا ابنهم إبراهيم هنا..! هل أشعلتم النار في أذناب الثعالب وأطلقتموها في مضارب البدو؟ أية نار هذه التي كانت قادرة على تطهير البشر والحجر والخيام، ومدينة بئر السبع الجديدة؟

لماذا تظهر سالومي، بدلا من دليلة؟ يا لنساء هذه البلاد..؟ ومن هو إبراهيم هذا الذي ينحدر مثلي من صرعة؟ وهل سالومي هي دليلته؟ وهل غدرت به مثلما فعلت دليلتي؟

عندما صدرت الأوامر لإبراهيم ورفاقه بالذهاب إلى مكاور، وإنشاء قاعدة للفدائيين، سمع اسم سالومي يتردد مصحوبا بضحك رفاقه، سالومي التي رقصت عارية أمام الملك هيرودس، وطلبت رأس يوحنا المعمدان على طبق. في مكانٍ ناءٍ في الصحراء الأُردُنية، مطل على الجانب الشرقي للبحر الميت، أرى قلعة مكاور، التي تعيش أسطورتها بأنها المكان الذي شهد تلك المأساة التاريخية، التي تشبه مأساتي، والتي ألهمت، مثلما ألهمت مأساتي، مبدعين من مختلف أنحاء العالم، أعمالا سينمائية، وتشكيلية، وروايات، ونصوصا نثرية وشعرية، ولوحات، وتماثيل، ولم تنس يا إبراهيم الفيلم الذي

شاهدته في سينما رغدان عن سالومي شبه العارية، وتسمع الآن صفير الحضور يكاد يصم أذنيك.

لماذا الخيانات هي التي تُلهم؟ ولماذا المرأة؟ لو لم أتعثر بدليلة، ولم يتعثر هيرودس، أعظم من حكم هذه البلاد بسالومي، لما تذكرنا أحد.

ارتبط الفدائيون، الذين كانوا تابعين للقطاع الجنوبي في حركة فتح، الممتد من الشونة الجنوبية إلى العقبة، بعلاقات جيدة مع عشائر بني حميدة، والعائلات البدوية التي تسكن الكهوف، وتعاون عدد من أبناء الحمايدة معهم، وامتدت العلاقات إلى جنود في الجيش الأُردُني، الذي خرج مهزوما في حرب قريبة، من قواعد قريبة.

وهتف الجميع بحماسة:

فوق التل.. تحت التل.. اسأل عنا الريح تندل
اسأل عنا جبل النار.. اسأل اسأل في الأغوار
اسأل أرضك اسأل زرعك.. راح تلقاه مرشوم ثوار
فوق التل.. تحت التل.. اسأل عنا الريح تندل
مد الخطوة شرقة وشامة.. تلقى عواصف تلقى نشامى
فوق الجبال في الوديان.. تلقى عزة تلقى كرامة

يُسمى الحمايدة قلعة مكاور (المشنقة). عالم ألماني زار القلعة، واكتشف ما اعتبرها أجزاء من المشنقة المفترضة التي عُلق عليها يوحنا المعمدان ليقدم هيرودس رأسه على طبق إلى سالومي المتهتكة.

وعندما شاهدت يا إبراهيم القلعة على شكل جبل مخروطي، تذكرت قلعة هيرودس في برية القدس، التي كنت تذهب أنت ورصفائك أولاد مخيم الدهيشة مشيا إليها، في الجانب الغربي للبحر الميت، الذي طالما سحرك زراق مياهه التي شكلت خلفية ذات معنى مثيرة لمشاعر الفدائيين والحمايدة الذين لم يكفوا عن استحضار مأساة يوحنا المعمدان، ضحية الزانية، التي عاشت في قرية (الزينة) القريبة، والتي أورثتها سالومي اسم الزانية، ولكن مع كرور الأيام، أضحت (الزينة) ولكن لعنات الماضي لا تتوقف، فهجرها أهلها إلى حيث الخدمات.

لعنات المكان، سببتها الحروب أيضا، انضم للحمايدة، عشائر فلسطينية من أعدائي القدماء، مثل الجهالين والعزازمة، سكنوا في الوهاد والجبال الممتدة نحو البحيرة المسخوطة، بسبب قوم جدنا لوط.

عندما وصل إبراهيم مع رفاقه، يكتم الألم الذي تسببه لسعات الرمال لقدميه، إلى الحدود الأُردُنية، فرحا بنجاح العملية الفدائية، كان في انتظارهم جيب عسكري تابع للجيش، طلب المسؤول الأُردُني، أن يسلك الأدلاء، وأصحاب الجمال، التي تحمل السلاح طريقا بين الجبال، في محاولةٍ لتجنب الانتقام الإسرائيلي، بينما سيتم نقل الآخرين بواسطة الجيب إلى معسكر غرندل القريب. رفض إبراهيم في البداية الركوب في الجيب، وأصر أن يذهب مع الجمالة، لكن وضع قدميه حسم الأمر في النهاية.

في معسكر غرندل، تلقى إبراهيم اسعافا، ومُنح حذاء عسكريا،

وكان عليه أن ينضم مع رفاقه وجنود الجيش، إلى معركة التصدي للطيران الإسرائيلي الذي بدأ بقصف المعسكر، واستمرت المعركة من العاشرة صباحا إلى الخامسة مساء، وبعد انتهاء المعركة، سُجن إبراهيم ورفاقه، نفذ رفاق المعركة الأوامر، وفي الليل وصلت الأنباء إلى المعسكر، بأن ثلاثة من الأدلاء والجمالة قتلوا في الغارات الإسرائيلية.

نُقل إبراهيم ورفاقه في اليوم التالي، إلى سجن الاستخبارات في العبدلي في عمان، وزارهم طوال فترة الاعتقال الحج إسماعيل آمر القطاع الجنوبي في فتح، وقائدها أبو عمار ونائبه أبو إياد، وشرح الأردنيون، بأن هناك اتفاقيات عليهم كطرفٍ رسمي الالتزام بها، وعدم انتهاكها باختراق الحدود.

بماذا تفكر يا إبراهيم؟ وأين أنت الآن؟ بعيدا عن العشائر البدوية، التي شكل وجودها مشهدا ضروريا في ملحمة المكان، الذي شهد مجدا غابرا، وحروبا مستمرة لا تنتهي، وحيكت حوله ميثولوجيا وملاحم الفيافي والصحاري والبحار، وبعيدا عن غرندل، حيث صنع الأنباط جزءا من مجدهم في الصحراء، التي لم تكن تعترف بالحدود.

هل تسمع صوتي؟ أنا شمشون الجبار يا ابن قريتي يا إبراهيم، رغم كل شيء فإن البدو هناك يغنون للعشق ومفردات الحياة البدوية، هل أرخيت أُذنيك وأنت تغادر مع رفاقك، سيرا على الأقدام، في الهضاب المقفرة، إلى النقب، لحنا شجيا يردده أحد الأدلاء البدو متحسرا:

"يا بنات بلادي
لا تتغربن
إجمعن دموعي
..واشربن".

وكأن أجداده الغزاة، الذين جاؤوا من جزيرة العرب، ليغيروا في لحظات تاريخية فارقة شكل المنطقة، لم تغيرهم منطقة الحضارات العظيمة كثيرا، فما زالوا ينشدون للعصبية حتى في الحب والنساء، مثل قومي تماما يا إبراهيم..! أنا وأنت ضحية قومينا..!

من يريد أن يعيش هنا، عليه تحمل وطيء التاريخ وأساطيره..!

هل أنت مستعد يا إبراهيم؟ أم فاتك الوقت لتفكر في الخيارات؟ أي شرق هذا، الذي يرمي أفراده في ثقوبه مبكرا، مبكرا أكثر من اللازم؟

١٩

استيقظ إبراهيم البسة مفزوعا، مبللا بالعرق، ليجد آشر أمامه في الزنزانة، التي لم يعد يميز فيها الليل من النهار، وخلف آشر شُرطي يحمل المفاتيح يطلب من إبراهيم الوقوف.

- أسف على الإزعاج، إن شاء الله كانت أحلاما سعيدة..!
- سعيدة؟ وفي هذا المكان..؟!
- أنت من جلبته لنفسك ومن أجل قطة..!

مستدركا:

- أرسلتك إلى هنا لمنحك فُرصة لمراجعة خطأك، والتأدب، وتقدير

ما جنيته على غيرك، ولتكمل بقية محكوميتك بسيرةٍ مستقيمة.

ـ أنا لم أجن على نفسي ولا على أحد، وآخر مكان يمكن لمثلي التعلم فيه هذا الصندوق الرمادي..!

ـ تتهمني بالفاشية، أنت ماذا تعرف عن النازية والفاشية؟

ـ أنا لم أقل شيئا..!

ـ خليك شجاع، وتمسك برأيك..!

ـ أنت سمعت ما أردت سماعه..!

ـ أعرف أنك وزملاءك فئران كتب، تقرأون ساعات طويلة في اليوم، وبأنكم مثقفون، ولكنكم لن تفهموا أنفسكم وما حل بكم وبنا، إلا إذا فهمتم الهولوكوست..! لا أن تتهموننا بالفاشية، وهكذا بكل بساطة..!

ـ نحن جربنا الهولولكوست الذي نفذتموه ضدنا..!

ـ كُل ما تعرضتم له، وكل ما تصورتم أنكم تعرضتم له، وكل الدعاية العربية عن ما تعرضتم له، شيء، والهولوكست شيء آخر يا خبيبي..!

ـ أنتم هكذا، تريدون احتكار دور الضحية، وتستكثرون علينا أن نكون نحن ضحايا، خصوصا وأنتم تعلمون جيدا ماذا فعلتم بنا..! ما حدث لكم، مشكلتكم مع أوروبا، وليس معنا لقد عشتم مثلنا في بلادنا، وانتقمتم منا، بدلا من الألمان..!

ـ يا إبراهيم، الهولوكوست كارثة استهدفت شعبا بأكمله، لم تقتصر على أوروبا، وصلتنا إلى العراق. في بغداد تأثرت النفوس المريضة بدعاية هتلر اللاسامية، في يومي الأول والثاني من حزيران

١٩٤١، هاجم الغوغاء بيوت اليهود، في الأحداث التي عُرفت باسم الفرهود، حرقوا وقتلوا وسلبوا. عندما تنطلق الشرارة، لا يعرف أحد كيف تكبر وتندلع الحرائق، مجرمون، وقوميون، وشرطة، وعسكر، ولصوص، وغيرهم شاركوا في الهجوم على بيوتنا، وقتلوا منا ١٨٠ رجلا وامرأة وطفلا، وهم يهزجون:

"حلو الفرهود كون أيصير يومية
حلو الفرهود كون ايصير يا خالة
أذاني أطرشت من كسر القفالة
حلو الفرهود كون أيصير يا عمة
أنظر على الشباب اشلون ملتمة"

كان البريطانيون على الأبواب. هرب النازي رشيد عالي الكيلاني، فحدثت الفوضي ولكن البريطانيين أخروا دخولهم ٨٤ساعة، لماذا تأخروا؟ لماذا وقفوا متفرجين على مقتل عشرات اليهود؟

ولم يحدث ذلك أول مرة، ففي السنوات السابقة على الفرهود، تعرضنا للهجوم، والقتل، وعندما سنحت الفرصة في الخمسينيات، هاجرنا إلى هنا، تركنا بيوتنا، وأملاكنا، ولاذ أكثر من ١٢٠ ألف من يهود العراق، بأرض ميعادنا، ولم يكن الأمر سهلا هنا، وضعونا في مخيمات التأهيل عدة سنوات، رشونا بالدي تي، وأعادوا تسميتنا من جديد، وعلمونا العبرية، حتى نصبح مكافئين لليهود الغربيين،

(نقلا عن جريدة المرصاد بعض أوجه الحياة في المعبار)

أنا مثلك جربت حياة المُخيم (المعبروت) ويمكن أن أشعر معك، ولكن عليك أيضا أن تشعر بي..!

- تستطيع أنت أن تقول ما تشاء، ولكنني أعلم بأن منظمات صهيُونية، وضعت القنابل في منازل اليهود في بغداد، لكي تجبرهم على الهجرة إلى أرضنا، ما وقع لكم لا يبرر ما وقع لنا..!

- أنت تخلط الحابل بالنابل، هذه الشائعة انتشرت بعد الفرهود بعشر سنوات..!

- ألم يلق وزيركم مردخاي بن بورات القنابل بنفسه على كنيس مسعودة شم طوف في بغداد؟ اقرأ صحفكم وستعرف عن ماذا أتحدث..!

- أنت لا تفهم؛ ما تناقشه صحفنا عن بن بورات أو غيره يعبر عن ديمقراطيتنا وما ينشر عبارة عن آراء ليس من الضروري أن تكون معلومات صحيحة، نحن نتناقش، ونعرف معنى النقاش، ولكن النقاش معك لن ينتهي إلى نتيجة، أنتم تُضيعون فُرصة أي نقاش، أتذكر كيف أفشلتم اللقاء مع الكاتب الكبير سمسوني؟

- أي لقاء يستهدف وعينا الوطني نرفضه بالطبع..!

- المهم، آمل أن تكون الأيام التي قضيتها في الزنزانة كافية لتراجع نفسك، وتعلم بأنه لا يجب أن يتطور الخلاف بينكم وبيني من أجل قطة، علينا أن نقطع عهدا بيننا أن لا نعود لمثل هذا الخلاف، أتعلم، بأنه في بعض الحضارات القديمة، عندما يحدث صلح بين اثنين مختلفين، كانوا يجلبون قطة موضوعة في سلة خيزران، ويُطلب من كُل رجل الإمساك بطرف السلة، ويحضر رجل

ثالث يهوي، ببلطة حادة على القطة المسكينة، فيقسمها قسمين، وهكذا يتم الصلح، ويتعاهد الطرفان، والمغزى أنه إذا نقض طرف العهد فسيلاقي مصير القطة..!

وعندما بدا أن آشر يستعد للمغادرة، سأل مازحا:

- ترى الأشقرية، يهُودية أم عربية؟

- طبعا عربية..!

وهو يضحك:

- كيف عرفت؟

- هذه الأرض عربية، ومن يدب عليها عربي..!

- ولكن المكتشفات الأثرية في النقب، أظهرت تماثيل قديمة، تظهر استخدام القطط في نوعٍ من العبادة لدى الفراعنة، عندما كانت أرض إسرائيل محتلة من المصريين، أي قبل العرب بآلاف الأعوام..!

وواصل آشر الحديث، كما توقع إبراهيم، بنبرةٍ خطابية لا تترك للخصم أي مجال للحديث:

- خُذ مثلا، مدينة بئر السبع، وهي من مدننا التاريخية، مدينة إبراهيم، وهاجر، ويعقوب وعيسو، مدينة الآبار السبع، والذبائح السبع، ظلت مدمرة، ومهملة، ولم تهتموا بها، حتى قرر الأتراك بناءها من جديد في أوائل القرن العشرين، مع نذر الحرب مع البريطانيين في مصر، ما استدعى الاهتمام بجبهة أرض إسرائيل الجنوبية. ولكن ماذا فعلوا؟ فعلوا كما فعلوا دائما، دمروا الحضارات السابقة، استغلوا حجارة كنائس الخربة، في بناء مدينة

بئر السبع الحالية، والبعض الآخر نقلوه إلى غزة، وأباحوا تكسير قسم من الحجارة من أجل رصف قسم من الطريق بين بئر السبع والخليل.

شكلت صحراء النقب حُلما لأبي دولة إسرائيل، بن جوريون، بتحويلها جنة يسكنها اليهود، فانتصرنا في الحرب، وحاولنا تطوير من تبقى من البدو، جمعناهم في محميات خاصة، ولكنهم بدلا من أن يشكروننا، فضل الكثير منهم أن يظل في مواقع غير شرعية، بدون كهرباء وماء، وهم يشكون ظلمنا ...!

أراد إبراهيم أن يوقف آشر عن الحديث، فتدخل:

ـ هذه أرض فلسطين، كانت وستظل، انظر كيف تعامل كلانا مع الشقراء، أنت ابن مجتمع استعماريَ عنيف، يُصدر أزماته وعنفه تجاه الآخرين، وتجلى ذلك بكل هذا الكره لها، نحن لا نعرف ذواتنا، إلا إذا عرفنا طبيعة علاقتنا بالقطط وغيرها من حيوانات..!

ـ أتعرف لماذا تبدي أنت كُل هذا الاهتمام بالقطة الضالة؟ لأنها تشبهك، أنت أيضا ضال، في قرارة نفسك لا تعرف لمن تحمل مسؤولية وجودك هنا، أنت ضللت طريقك، مثلها تماما، وعندما وعيت وجدت نفسك هنا، بين الجدران الصفراء، المحاطة بالرمال الصفراء..!

ـ أنا أريد ترميم علاقات الناس الذين يسكنون هنا بالقطط، بعد الخراب بسبب الاستعمار وممارساته، عندما أعتني بالشقراء، أنا في الواقع أدافع أيضا عن بشريتكم المهدورة، التي شوهها الاحتلال..!

صفق آشر بشكل تمثيلي وهو يقول: برافو..برافو، ولم يستطع إخفاء ملامح الغضب التي ارتسمت على وجهه، وأنهى الحديث:

- يا خبيبي، لا تُدخل القطط البريئة في مشاكلنا الشريرة..! وأنت تعلم بأننا واحة وسط دولكم القمعية الصحراوية، نحن الحضارة وأنتم قشورها..!

وسمح آشر لنفسه أن يستعرض أمام إبراهيم، بعض ما يعرفه من معلومات عن القطط، ويلقي خُطبة غير متماسكة، عن بعض المذابح التي تعرضت لها من قبل البشر، مثل مذبحة باريس قبل قرنين، وعن احترام الكتاب المُقدس للحيوانات، وكذلك تقدير المسلمين لها، والدليل الصحابي الجليل أبو هريرة، الذي اكتسب كنيته من حبه للقطط، البني آدم الجليل، جليل، بغض النظر عن دينه..!

كره إبراهيم البسة آشر، الذي اقتحم عليه زنزانته، ليستعرض معلوماته، ويلقي خُطبه عليه. هذا النوع من الخطابات والتلاعب بالكلام يدركه جيدا، وليس لديه شك، بأنه جزءٌ من خططٍ تستهدف التأثير على أفكار الأسرى وعواطفهم الوطنية، وانتمائهم الثوري والإنساني، وإذا كان زملاؤه أفشلوه، عندما استهدفهم بشكلٍ جماعي، بتنظيم من الشاباك، وأداته الكاتب سمسوني، فإن آشر يواصل بدون كلل أو ملل، التأثير عليه، وعلى زملائه، مستعينا هذه المرة بالقطط البريئة.

هل جاء آشر إلى الزنزانة، ويقلق نومته، ليحدثه عن القطط؟

٢٠

في ذلك اليوم، زعل إبراهيم، الذي كان عمره نحو ٢٣ عاما، لأنه لم يتم اختياره، من قبل آشر، لحضور اللقاء مع سمسوني في الساحة.

تم اختيار عدد محدد من كُل غُرفة، من الأسرى المُثقفين، واستثنائه من زمرة الأسرى المُثقفين، أغضبه، ولكنه تابع اللقاء من خلال الشباك، والسماعات التي نقلت الحوار لجميع الأسرى. ولاحقا، سيتفهم مسألة استثنائه، فالذين اختيروا كانوا أكبر منه سنا بعامين أو ثلاثة، وعركوا الحياة داخل السجن وخارجه.

قدم سمسوني نفسه، باعتباره خادما للأدبين العربي والعبري، وناقلا لعيون الأدب العربي للعبرية، مثل مؤلفات نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، وتوفيق الحكيم، ويحيى حقي، وغيرهم من كُتاب، ارتبط بهم بعلاقات شخصية، إضافة إلى علاقاته مع الكُتاب الفلسطينيين، مثل إميل حبيبي ومحمود درويش، خصوصا خلال نشره لكتاباته، بعد هجرته من العراق، في عملية (عزرا ونحميا) التي نُقل خلالها ما بين ١٢٠،٠٠٠ و١٣٠،٠٠٠ يهودي عراقي جوا إلى هذه البلاد في الفترة بين ١٩٥٠ و١٩٥٢ عبر إيران وقبرص، والتي كانت بمثابة طرد جماعي لطائفةٍ كاملة، كما أكد، وهو ينظر للسجناء الجالسين أمامه، على شكل هلال كبير.

وروى ما حدث في الفرهود، الذي وصفه بالهولوكوست المنسي ودور الحاج أمين الحسيني في تلك الأحداث، ونشر الدعاية النازية

ضد اليهود، بدلا من أن يكون في بلاده، ومع شعبه، كما حدث في الجانب الآخر، حيث كان قادة اليهود، وأبناؤهم، مجندين في معركة الوجود كما سماها.

سمسوني، رأى بأنه حان الوقت ليحترم الفلسطينيون والإسرائيليون، آلام بعضهم بعضا، ويبحثا عن طريقٍ للسلام، وأن التشنج وطريق العنف، والعمليات التخريبية، غير مفيدة، وأن ضحاياها هم من المدنيين الأبرياء، وتصيب أيضا الأبرياء من الفلسطينيين، الذي يعملون في المدن الإسرائيلية.

وقال بأن من يريد سلاما عليه أن يكون جاهزا لدفع ثمنه، وهو أرخص من أثمان الحروب، والتسليم بوجود مجتمع يهودي لأن الإنكار غير مفيد، ويطيل أمد الصراع.

خاطب الأسرى: "نحن الأدباء الأكثر انفتاحا على السلام وعلى الآخر، أنتم تعلمون أن إسرائيل قوية، ولكنكم تعيشون حالة إنكار، ولو لم تكن قوية، لما كنتم هنا. علينا في الجانبين، أن لا نرتهن لما يقوله الشارع، لا يجب أن ندع الغوغاء يقودون المُثقفين، والمطلوب منا، قبول الآخر وصُنع السلام معه، السلام لا يُصنع إلا بين المختلفين، وهذا يحتاج للتغلب على ما ورثناه جميعا من مفاهيم سلبية عن بعضنا البعض، وهنا يبرز دور المُثقفين المهم".

استمعت انتلجنسيا الأسرى، كما تفكه زملاؤهم لاحقا، بصبرٍ لسمسوني، وهم الذين يعتقدون أن لديهم القدرة على الإطاحة به في النقاش، بسهولة، فهم أصحاب حق، وطلاب حُرية، وغير ملزمين بالتفريق بين مدني احتل أرضهم، أو عسكري محتل، الجميع

مشترك في جريمة سرقة أرض، وتشريد سكانها، ليصبحوا لاجئين، وإن ما تعرض له اليهود في مكانٍ ما، لا يبرر إعطاءهم وطنا بعد طرد سكانه، وتشريدهم، ونفيهم، وملاحقتهم.

وتحدث شاهين باسم الأسرى، مشككا بهدف هذه اللقاءات، وبجدواها، قائلا إن على المثقف، أي مثقف، والكاتب، أي كاتب، أن يكون في صف حركات التحرر، مع الشعوب في نضالها من أجل حق تقرير المصير، وأن كُتاب العالم البارزين، والأكثر شهرة وانتشارا، هم الذين حسموا أمرهم، مع الشعوب المقهورة، أما كُتاب السلطات، وشعراء السلاطين والبلاط، فهم إلى زوال.

وسأل علي كويرا، سمسوني:

- أنت تعلم، بأن لا حق لكم في بلادنا، وأنتم اليهود العرب، أداة في يد الصهيونية، تستخدمكم لضرب إخوانكم العرب، بينما تمارس التمييز ضدكم، لا أتصور أن تتخلوا عن عروبتكم بهذه البساطة، حتى لو تعرضتم كما تقول، إلى مذابح. الهويات لا تغيرها الأحداث الطارئة والحروب الأهلية، ولا مئة فرهود، كيف يمكن للشخص أن يخرج من جلده؟ هل إذا استيقظ صباحا، وقال: أنا الآن إسرائيلي، ولم أعد عربيا أنهى الأمر؟

وقدم أبو علي مداخلة، أبدى فيها عجبه كيف يمكن وصف عملية مولتها الحركة الصهيونية لنقل اليهود، بأنها تخلص عربي من طائفة كاملة، وأورد أسماء يهود ناضلوا مع إخوانهم العراقيين من طوائف وإثنيات مختلفة من خلال الحزب الشيوعي العراقي.

استمع سمسوني، بصبرٍ أيضا لممثلي الأسرى، ورد عليهم،

وردوا عليه، وآخر ما سمعه إبراهيم البسة، وهو ينظر من النافذة، قول سمسوني:

- أنا أبذر بذارا، علها تنبت في هذه الأرض المُقدسة، التي يبدو أنها لا تتعب من الحروب..!

قرر الأسرى بعد تقييم للقاء، مقاطعة أي لقاءات أخرى، تستهدف حسهم الوطني، ومطالبهم المشروعة في أرضهم ووطنهم، والتي يؤيدها أحرار العالم. كانت هذه قناعتهم التي لا تتزعزع، على الأقل في تلك الأيام التي عاشوها في السجن الصحراوي.

٢١

في صباح اليوم التالي، لاقتحام آشر لزنزانته، نُقل إبراهيم البسة إلى الإكسات، وهي زنازين عزل، ولكن المعزولين فيها يستطيعون أن يروا بعضهم نسبيا، ويتواصلوا معا نسبيا.

ولاحظ إبراهيم أكثر من مرة، محاولة بتلر الأسود الاقتراب منه وهو يدندن، وقدر إبراهيم، بأن بتلر يحاول أن يقدم له شيئا، ولكنه تجاهل بتلر، لاعتقاده، بأنه في النهاية هو عين لآشر.

بعد ما بدا أنها مناورات من بتلر، لمعرفة إذا كان أحد يراقبه، اقترب من إبراهيم، وهو يحمل مكنسة، ليبدو وكأنه في طريقه لتنظيف مكتب آشر، وأخرج قطعة عُجاة (فطيرة)، من جيب جلبابه، ودفعها له.

أخبر بتلر إبراهيم، بعبريته المكسرة، وبإشارات يديه، بأن آشر أرسله، ليختبر حال معنوياته، وبعد رده على أسئلة إبراهيم، استغل

بتلر فرصة إصغاء شخص له، ليروي جانبا لم يكن معروفا من حكايته، عن الفرقة الموسيقية التي تضمه وأفراد أسرته، والتي تغني في المناسبات، وينظم لها آشر حفلات في قاعات رئيسة في تل أبيب ومدنٍ أخرى، كنوعٍ من العمل الإضافي بالنسبة له، وعلم إبراهيم بأن مدير السجن يأخذ حصة الأسد من الأسرة المهمشة، التي تنتمي لطائفة مهمشة، تكره اليهود البيض، ولكنها، وبقدر هذا الكره، تسعى جاهدة، لنيل اعترافهم.

أراد إبراهيم تزجية الوقت، وهو يشك بأن بتلر قد يكون يسجل حديثهما، بواسطة مسجلة مخفية في ثيابه:

ـ هل تحب آشر؟

ـ لا أحبه ولا أكرهه، هو أفضل من غيره، يحب أغانينا، ويحب أكثر ما تدخله من أموال في جيبه.

ـ هل تحبنا؟

ـ لا أحبكم ولا أكرهكم، أنا مستاء للظلم الذي تتعرضون له في السجن.

شكر إبراهيم، بتلر على عواطفه القليلة، وقال له بأنه سيتذكرها دائما، ونصحه بالعودة إلى وطنه الأمريكي.

بعد ساعات، فُتح الباب، وطلب منه شُرطي أن يتبعه. في طريقه إلى الغُرفة، مُكلبشا، حاول إبراهيم اختلاس النظر للشقراء، وأبنائها في بيتها الكرتوني، بجانب كُشك الحارس، ويبدو أنها شمت رائحته، فرفعت رأسها، لتطمئن على عودة صديقها، وأصدرت مواء مُرحبا.

في المساء، فوجيء الأسرى بالشقراء، تقف على فتحة بين قضبان الباب، تحمل في فمها واحدا من أبنائها، ثم تقفز في الغُرفة.

ابتهج الأسرى، وأسرع إبراهيم إلى حملها، وصغيرها، وبُدئ من جديد بإعداد مسكن لها، تبرع كُل أسير، بخيطٍ انتزعه من بطانيته، وأشياء أخرى كانت أكثر من كافية ليعبروا عن ابتهاجهم بالعودة الميمونة، وبانتصار الشقراء على السجانين.

تمكنت الشقراء، خلال أيام من نقل جميع صغارها إلى داخل الغُرفة، ووصل خبر وصولها سالمة، إلى كنف إبراهيم، إلى آشر، الذي احتار في كُنه العلاقة بين الأسرى الخارجين عن القانون، والقطة، المفترض أنها بريئة، وبعيدة عن تعقيدات الحرب والسلم في هذه البلاد.

وقرر بينه وبين نفسه، أن يكون مرنا في التعامل مع الموضوع، واستسخف، أن يجعل من مسألةٍ تافهة، مثل التخلص من قطة، ليست فقط قضية، وإنما قضية غير قادر على معالجتها، وهو يعلم ما سيثير فشله من لغط، خصوصا، من حاسديه على منصبه هذا، وسيعزز الفشل، من قناعات زملائه في سُلطة السجون، من اليهود الأشكناز، تجاه قدرات المزراحيين أمثاله، خصوصا في تجنب الحسم، والتذبذب وعدم تقدير المواقف، وتغليب العواطف، ولا شك بأنها ستجعل منه موضوعا لنكات لا تنتهي لديهم. سيصفه أحدهم بأنه (تسحتساح)، الكنية التي طالما أطلقها الأشكناز، على الفتى الشرقي المدمن، والخارج على القانون، كما أطلقوا كنية (فرحاه)

على الفتاة اليهودية الشرقية، وتنميطها بوصفها عاهرة.

نزل إلى الغُرفة، دون أن يكون لديه قرار محدد بشأن القطة المخالفة للقانون، والمحبة للمخربين الإرهابيين، قتلة الأطفال والنساء، والذين يريدون أن يدمروا دولة إسرائيل، ولكن جيش الدفاع لهم بالمرصاد، وتساءل، لماذا دولته تحتفظ بهم، بدلا من التخلص منهم، وإعدامهم، وإراحته من تعب القلب معهم؟.

فتح الحارس باب الغُرفة، ودلف منه آشر ومرافقوه المدججون، وخاطب إبراهيم:

- وبعدين معك، ألا تريد أن تجعل المركب سائرا؟

- وأنا مالي؟

- أنت مالك، وأنا مالي، وهم مالهم، هل سمعت بالمثل الذي يقول: مجنون رمى حجرا في بئر، مائة عاقل لم يستطيعوا إخراجه..!

- أي بئر، وأي حجر، وأي مجنون، أنا كما تعلم كنت معزولا في الزنزانة بأمرٍ مباشرٍ منك شخصيا، ولست مسؤولا عما يجري في السجن.

- هههههه صدق من قال: قحبة وقلبها طيب. اسمع لا أُريد أن نطيل الحديث، سأتغاضى عن وجودها هنا، حتى يكبر الأولاد قليلا، ولتعرف بأنني رحيم شفوق، أصلا نحن من لدينا مباديء الرفق بالحيوانات في هذه البلاد فقط في كُل الشرق الأوسط، ألا ترى كيف تعيش قططنا في دلعٍ ونعيم، بينما قططكم سائبة جائعة، تبحث في القُمامة عن طعامها، ويلاحقها الأولاد بالحجارة في الأزقة.

وواصل:

- ..ثم سيكون قراري حاسما، برميها خارجا، لأن وجودها هنا يشكل مخالفة كبيرة للقانون، وأنا هنا فقط لتنفيذ القانون، هل تعلم أنه في حضارات متقدمة وأخرى متوحشة، كانوا يقاضون الحيوانات المذنبة، ويحاكمون أصحابها؟ أنا لا أضع القوانين، ومع ذلك الرحمة فوق القانون، ولكن إلى حين، وأرجوك لا تجرب أن تختبر صبري..!

كان إبراهيم قد قرر خلال وجوده في الزنزانة الانفرادية، إطلاق سراح الشقراء وأبنائها، بعد أن يشبوا قليلا، معتبرا أن احتفاظه بها، حتى ولو كان ذلك بإرادتها، هو انتقاص من حُريتها، وهو الذي يعلم ما هي الحُرية، التي يجب أن ينعم بها كُل مخلوق.

توثقت العلاقة بين إبراهيم والشقراء وأبنائها في الأيام التالية، وبذل مع زملائه جهدا أكبر من أجل توفير أكبر قدر من الطعام لـ "فصيل القطط"، كما أصبح يتندر الأسرى.

وطرح بعضهم، متندرين، إمكانية أن يكون في اللجنة النضالية ممثلا عن القطط، التي لا بد من وجود مطالب خاصة لها وحقوق في هذا السجن الصحراوي، أسوة بباقي الفصائل.

وعلى مدى أسابيع، وبالتعاون مع الأسرى الذين يعملون خارج الغُرف، تمكن إبراهيم من إخراج الشقراء وأبنائها، على مراحل، والاطمئنان، من الأسرى العُمال، على مصير القطط، مشددا على أهمية إطلاق سراحها بالقرب من السجن، ومدها بالطعام، حتى تتدبر أمرها.

وعندما حان موعد إطلاق سراح الشقراء، تجنب النظر في عينيها، بينما رشقته بنظراتٍ ودودة، وهي تهز ذيلها، وتُقوس ظهرها، وتصدر مواء طويلا حنونا.

راقت عملية إخراج القطط، للحُراس الذين كانوا يراقبون، رغم أن إبراهيم كان يريد أن تتم العملية بعيدا عنهم، حتى لا يعتقدوا بأنها أتت رضوخا لمطالب الإدارة.

وأبقى إبراهيم لديه، قطا نمت بينهما ما اعتبرها علاقة خاصة، أُعجب بذكائه، وفطنته، وألوانه المتعددة، وعينيه الحادتين. سماه (حكم)، لكي يكون شاهدا وحكما، على ظلم آشر وإدارته، لأسرى الحُرية، وحرص على أن يظل وجوده في الغُرفة سرا على إدارة السجن.

٢٢

شعر آشر بارتياح غريب بحل قضية الشقراء، التي أرهقته تفاصيلها، ووجد وقتا أكثر للاهتمام بمجموعة كلاب السجن، التي تستخدمها الشرطة، والتي يطلق عليها (كنعاني) نسبة لهذه البلاد، والتي تم اختيارها وتدريبها ووضعها في خدمة الشرطة الإسرائيلية، لشراستها، والتي يفخر آشر بأنه سار على درب والده في تتبعها في البراري، ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه منها، وإعادة تأهيلها، وبيعها لمحبيها، في حين أن العرب، الذين يطلقون عليها اسم (البلدي)، أو اسما دونيا (الكلب الجعاري) يزدرونها، ويفضل الأثرياء ومحبي الكلاب منهم، الكلاب المستوردة، مستثنيا من

العرب، البدو الرعاة، الذي توارثوا الاستعانة بالكلاب الكنعانية، منذ أن استخدمها أجداده بنو إسرائيل القدماء، قبل أن يتشتتوا في أصقاع الدنيا.

وقع في غرام الكلاب الكنعانية، منذ أن كان طالبا في المدرسة، وكانت حكاية اكتشاف الكلاب الكنعانية، واحدة من القصص البطولية للرواد الصهاينة، التي تشربها، منذ وصوله للبلاد، وخضوعه لعملية تحول، كان ينتظرها لشخصيته وهويته، ومن بينها تغيير اسمه من أشرف إلى آشر.

وتحول شغفه بهذه الكلاب، إلى ما يشبه المهنة، عندما بدأ يخرج مع والده في رحلات مشي، إلى ما تبقى من قرى عربية، وبمساعدة أصدقاء دروز، يعرفون المنطقة، للبحث عن الكلاب الكنعانية، وإخضاعها لإعادة تأهيل، تماما كما حدث معهم في المعبروت، كما كان يقول والده مازحا، قبل أن تذهب للزبائن الذين عرفوا تدريجيا طريقهم إلى والده، الذي ساعدته كثيرا لغته العربية، ومعرفته لثقافة وتقاليد العرب، في نسج علاقات وثيقة مع دروز وبدو البلاد، جريا خلف الكنعاني، الذي يمتاز بخفة الحركة، وبالطاعة، التي تتناقض مع طبيعته البرية.

بالنسبة لآشر، فإن حساسية الكنعاني للغرباء، وردة فعله السريعة تجاه أي منهم، تؤهله ليكون كلبا بيتيا وحارسا نموذجيا، خصوصا وإنه قادر على التعلم بسرعة.

آشر يعتبر الكنعاني، كلبا ذكيا، وهو ما خبره من خلال التمارين التي كان يخضعها لها والده، وكان يساعده، ولكنه قد يشعر بالملل،

إذا تكررت نفس التمارين، فيتجاهلها، وفي هذه الحالة يُرسل رسائل للمدرب، بأنه فهم الدرس، وعليه الانتقال إلى درسٍ آخر، إلا إذا كان يهدف لتضييع الوقت، وهنا يظهر الفرق بين مدرب وآخر، بين النباهة وسرعة الاستجابة وتغيير الأسلوب، وبين التقليد والصلف، والابتكار.

عندما كان والده يُستدعى إلى أحد الكيبوتسات، ليتحدث عن الكلب الكنعاني، كان يصفه بأنه قوي، متوسط الحجم، وخفيف الحركة، وقادر على التحمل مثل أحسن حمار، ورشيق مثل غزال، وسريع كنمر، ويستطيع تغيير اتجاهاته بسرعة مثل أفعى مراوغة، ومتأهب ويقظ كأحسن حارس، وشمام، لديه حاسة شم لا مثيل لها، يشم الإنس، والجن، والأعداء، والأصدقاء، وسريع الاستجابة لكل موقف يتعلق بكل هؤلاء، مواقف صديقة، أو عدوة، ليس عدوانيا، يحب اللعب مع الأطفال، ولوفائه لأطفال العائلة يجب الانتباه عندما يأتي أصدقاء الأطفال من أماكنٍ أخرى، لأنه قد يفهم خطأ أي صوت غريب يعلو، وقد يعتبره عدوانيا، فيهاجم الضيوف.

• كان والده يقول بحماسةٍ: "الكنعاني، ابن سلالة تمتد عميقا في أرضنا، حافظ على نقاء السلالة مثلنا، رغم تعاقب الاحتلالات على هذه البلاد، ولا يعاني من أية أمراض وراثية، ويعيش حياة مديدة، تصل إلى خمسة عشرة عاما، عدنا بعد شتات طويل، لنجده هنا بانتظارنا، لم يحتاج فقط إلا للفترة الواجبة لإعادة التعارف".

كان والده يواجه، جديا، مسألة نقاء سُلالة الكنعاني، وطور أساليب عديدة، بمساعدة رفاقه البدو والدروز، من أجل الحصول

فقط على الكنعاني الأصيل غير المهجن، ومن هذه الأساليب اختبارات يجريها ليتأكد من الصفات التي يتوارثها الكنعاني الأصيل، عن الآباء والأجداد.

وبعكس الواقع الحالي، فإن الكلب الكنعاني، كان على الأرجح مُقدسا، وظهر ذلك من خلال العثور على مقبرة كبيرة لها في عسقلان، ضمت نحو ألف جُثة متحللة، وهي أكبر مقبرة للكلاب في العالم القديم، وتبين من هياكلها العظمية، أنها تشريحيا على غرار الكلب الكنعاني في العصر الحديث.

تمنى آشر لو أن والده ما زال على قيد الحياة، لدى اكتشاف المقبرة، وتخيله يهزأ من المثل المشهور عن الجنازة الحاشدة، رغم أن الميت مجرد كلب، الذي يعكس نظرة المجتمعات في هذا الشرق للحيوان الأليف المحبوب والمكروه، ويقول بطريقته التي تلفت السامع لحديثه: "لكن يبدو أن هذه النظرة لم تكن هي السائدة دائما في شرقنا".

وتخيله يضيف: "في القرن الخامس قبل الميلاد، عاش المجتمع الفينيقي في ساحل أرض إسرائيل تحت الاحتلال الفارسي، ويبدو أنه حرص، كما يحدث في الحالات المماثلة على التمسك بالهُوية ومفرداتها وبعث العادات والتقاليد، ومنها توقير الكلاب التي كانت تُقدس كجزءٍ من معبد الإلهة عشتار وإله الشفاء (رشف ـ مكل). احترم الفينيقون الكلاب، ولكن يبدو ليس إلى الحد الذي يمكن أن تصل إليه توقعاتنا نحن من نعشق الكلب الكنعاني، فبعكس قبور البني آدميين، لم يدفنوا مع الكلاب أية أغراض يمكن أن ترافقهم

في رحلتهم الأخيرة إلى حيث لم يعد هناك من يروي لنا ماذا يجري في تلك المنطقة الغامضة، وربُما عانوا في دفن كلابهم، من إجراءات الاحتلال، فكانوا يدفنونها على عجلٍ، أو وهم في ضيقٍ، فيوفرون المرفقات الجنائزية لأولادهم في ظروف الاحتلال القاسية".

وأنت يا والدي لم تعد ولم ترسل لنا أية قصاصة ورق من هناك، ولكنني ها أنا أخبرك عن ماضي كلبنا، وأعلم أنك تسمعني وتتابعني، وتوضح لي.

يفخر آشر، بأن ما يسميها ملحمة الحفاظ على الكنعاني، لم تكن لتحدث لولا إحدى الرائدات اليهوديات، الدكتورة رودلفينا منزل، التي هاجرت إلى البلاد من فيينا، حيث اشتهرت هناك كمختصةٍ بسلوك الحيوانات.

هاجرت «منزل» مع زوجها إلى فلسطين في عام ١٩٣٨، ولأن كُل فرد يمكن أن يكون له دور في المجهود لبناء دولة اليهود المقبلة، طلبت الهاجناة منها المساعدة في إنشاء قسم للكلاب، وتبين لها بأن الكلاب الغريبة غير قادرة على التعامل مع الظروف المناخية القاسية وتضاريس البلاد، وكان لا بد لها من الحصول على بديل، وفي لحظة إشراق، تنبهت إلى الكلاب المحلية البلدية المنبوذة السائبة والمحتقرة.

وبدأت حملة لجمع الكلاب السائبة، التي تعيش قريبا من المستوطنات اليهودية، التي تنمو باضطراد، وتلك التي تعيش في الصحراء، وعندما بدأت تُدربها، فوجئت باستجابة هذه الكلاب البرية للتدجين، والتكيف، وسرعة التعلم.

نجاح منزل مع الكلب الكنعاني، لم يقتصر على الاستخدامات العسكرية للعصابات الصهيونية، وإنما أيضا للحراسة، واستخدمها الصليب الأحمر، لاحقا، لتحديد مواقع الألغام الأرضية. وخلال الحرب العالمية الثانية، جندت الدكتورة منزل ودربت أكثر من ٤٠٠ من أفضل الكلاب للكشف عن الألغام الأرضية، والتي أثبتت تفوقها على الكاشفات الآلية.

لطالما استمع آشر، وهو برفقة والده، لأحاديث الدكتورة منزل عن الكنعاني الذي لم يخذلها أبدا، ليس فقط في الحرب، ولكن أيضا في السلم، فبعد الحرب، التي انتصر فيها البريطانيون، وانعدم خطر وصول النازيين إلى فلسطين، كرست وقتها لمساعدة المكفوفين، وبعد تأسيس دولة اليهود، أسست مركزا للكلاب المخصصة لمساعدة المكفوفين في تنقلهم، وكانت تفخر بأنه الأول من نوعه في الشرق الأوسط.

وأرسلت منزل، نماذج من الجراء إلى أمريكا، وألمانيا، وبريطانيا، لتبدأ هذه الكلاب بصنع أسطورتها في بلاد الغربة: "كجراءٍ ولدت على المزابل، وها هي تصعد سلم المجد، بسبب مواهبها التي لا تعد"- كما كان يقول والده.

في عام ١٩٧٠، أصبح مأوى الكلاب في القُدس، الذي يهتم بالكلاب الكنعانية، مشهورا، وواصل عمله، حتى بعد وفاة الدكتورة منزل عام ١٩٧٣، وما زال آشر يتردد عليه ويتعاون مع إدارته، ويعتبر نفسه، على الأقل من جانب واحد، خبيرا في الكلاب الكنعانية، ويعزي لنفسه، اكتشاف رسومات لها على جدران مقابر قديمة.

٢٣

منذ أن استلم آشر مسؤولية إدارة سجن بئر السبع، بدأ بوضع مشاريع طموحة لطالما فكر بها، موضع التنفيذ، فهو على قناعة، بأن الكلب الكنعاني، الذي عُني به بنو إسرائيل القدماء، واستخدموه في حراسة مستوطناتهم، وقطعان الماشية، قبل تشتتهم من قبل الرومان قبل ألفي عام، وجد ملاذا له، في صحراء النقب، أكثر من أي وقت مضى، وإذا كان والده بنى مجدا شخصيا في هذا المجال، في منطقة الجليل، فهو يريد أن يواصل المجد العائلي، بالتعاون مع البدو في صحراء النقب.

وتعلم من البدو، ما سيصفه، مازحا، مُعجم الكلاب الفلسطيني، فلمناداة الكلاب مثلا يهتفون: قس قس، وللزجر: حه..إطلع برة، ولدعوة الكلاب وحثها على الشرب: لق لق.

وحقق آشر نجاحا جزئيا بالحصول على بعض الكلاب، التي تم وضعها في غرفتين ملحقتين بالسجن، وفصلها عن تلك الكلاب المدربة التي تستخدمها الشرطة، ليترك لنفسه المجال لمواصلة ما بدأه والده في تدريب وتدجين الكنعاني.

في مواسم عبور الطيور المهاجرة، يصيد آشر لكلابه، ما يعتبره مكافأة لها على وجودها في حياته، والواقع أن كلمة صيد، لا تنطبق على ما يفعله آشر، ويستخدم على الأرجح الكلمة، لإحداث الوقع الإبائي والشرفي اللازم بينه وبين نفسه، لكلمة صيد. ولكن ما يفعله هو جمع الطيور النافقة من بين مئات الملايين من الطيور المهاجرة

عبر البلاد والتي تعتبر إحدى أهم الطرق التي تسلكها هذه الطيور من صقيع أوروبا إلى دفء إفريقيا، والعودة من جديد إلى مواطنها الأصلية، بعد انقضاء فصل الشتاء.

تمكث الطيور المهاجرة في البلاد، لفترات تطول أو تقصر حسب نوع الطيور والظروف المحيطة، وتثير هذه الأعداد الكبيرة منها حماس المهتمين ومراقبي الطيور، ومنهم آشر، الذي يعلم أن من أسباب نفوقها، تناول أغذية فاسدة، أو صعق أسلاك كهرباء الضغط العالي، أو القتل على أيدي الصيادين.

ومرة رأى في أحد شوارع النقب، وهو في طريقه للدوام في مكتبه في السجن، أكثر من مئة جُثة لطير البجع، وهو ما أثار غضبه، ثم وبعد أن هبط عليه وحي التفكير العقلاني الواقعي، أخذ بجمع ما يقدر منها، ويتسع لها صندوق سيارته الخلفي، ليقدمها إلى كلابه الحبيبة.

واتصل بالدكتور ايجال، المختص البيطري، والذي يدير عيادة لعلاج الطيور، وأبلغه عن مذبحة الطيور، ولاحقا أخبره الدكتور، بعد أخذ عينات من البجعات النافقة، أنه تم العثور على طلقات معدنية في أجسادها. لقد استقبلها الصيادون بالكرات القاتلة، وأخذوا ما تمكنوا من الضحايا، وتركوا ما سقط منها على الشارع.

ولكن لماذا يقتلون البجع؟ تساءل آشر.

في ذلك اليوم، قسم البجعات النافقة على وجبات قدمها للكلاب، التي تناولتها بشهية، ومحا خاطرا غزاه، حول لهفة الكلاب على للجيف.

أراد آشر أن ينشط متطوعا في جمعيات حماية البيئة، لإنقاذ الطيور المهاجرة، ولكنه لم يجد وقتا، ومع ذلك حضر بعض الاجتماعات وعلم بأن نفوق أعداد من الطيور المهاجرة، أدى إلى فقدان أنواع من الطيور النادرة الجارحة، ووقع على عريضة موجهة لشركة الكهرباء لاتخاذ الإجراءات اللازمة، حتى لا تظل سببا لصعق الطيور التي تحل ضيوفا على البلاد، والذي يؤدي إلى الموت، أو رُبما أخطر منه، والمقصود إصابتها بعاهات ترافقها ما تبقى لها من عمر، مثل فقدان أجنحة، وإصابات بالعمى.

واطلع على أسباب أخرى لنفوق الطيور المهاجرة، مثل التسمم الغذائي، وعدم إقدام الرعاة على دفن المواشي التي تموت نتيجة التسمم أو ما شابه، فتشكل فخا مميتا للطيور الجارحة إذا بقيت في العراء، فتقصدها هذه الطيور لأكل لحمها دون أن تعلم بالطبع أنها سامة. وهناك طيور تنفق؛ لتناولها جثث حيوانات نافقة، قتلها صيادون بطلقات تحوي نسب عالية من الرصاص، وأخرى تقضي ضحية مربي الأسماك الذين يستهدفون بعض أنواع الطيور ببنادقهم؛ لإبعاد هذه الطيور عن بركهم.

واستمع آشر لكلمة ناشط بيئي: "...وحتى إشعار آخر، فإن الطيور المهاجرة التي تبعث البهجة في النفوس، وتعتقد أنها وهي تقطع طريقا تمره منذ قرون، بأنها ستصل بسلام إلى موطنها، سيتعين عليها التحسب بأن إسرائيل أضحت مصيدة موت لها، من يعبرها بسلام من الطيور، كُتبت حياة جديدة له".

وتذكر أنه يمكن أن يستفيد من نفوق الطيور، مبعدا عن نفسه

تهمة المشاركة في الجريمة، معتبرا أن ما سيفعله، هو إطعام ما يستطيع أن يجمعه من طيور نافقة للكلاب التي تستحق ذلك، وفي الوقت ذاته يقدم خدمة لها، وللبيئة، بعدم تركها في العراء للتحلل الوحشي والوضيع، وإنما يجعلها مفيدة حتى وهي ميتة.

عندما كان يقف وسط كلابه، ضحك على نفسه، وعلى الظرف الذي جعله يضع رأسه برأس قطة، وهو سيد هذه الكلاب التي لا تُقهر.

٢٤

لم يعرف الأسرى إذا علم آشر، بوجود حكم داخل غُرفة إبراهيم البسة، أم لا؟ ولكنه اختار عدم المواجهة، أو تأجيلها، خصوصا أن الأمور بين إدارة السجن والأسرى، كانت تتجه للانفجار.

ومع تزايد التضييقات على الأسرى، وعدم الاستجابة لمطالب قدموها سابقا، ووافقت عليها الإدارة، أعلنوا الإضراب المفتوح عن الطعام، وهو قرار صعب واستراتيجي بالنسبة لهم، جاء بعد التشاور مع الأسرى في السجون الأخرى، والاستعداد داخليا لعدم تناول الطعام، والاكتفاء بالماء والملح، حتى لا تتعفن معد الأسرى.

أعدت اللجنة القيادية للأسرى بيانا تعبويا، شرحت فيه أسباب الإضراب وحددت المطالب، بدأته بالبسلمة، ثم الأية القرآنية:

قال تعالى: "**وأعدوا لهُم ما استطعتُم من قُوةٍ ومن رباط الخيل تُرهبُون به عدُو الله وعدُوكُم وآخرين من دُونهم لا تعلمُونهُمُ اللهُ يعلمُهُم**"- صدق الله العظيم .

وضمنته أبياتا من الشعر الثوري:

بالجوع نكتب للشعوب رسائل
هكذا يكون الشجعان في الميدان
سجل أخي واصرخ رفيقي
فالردى شرفٌ يسطره دم الشجعان
يا راية التحرير لوحي وابرقي
فالقيد ضاق بمعصمي وبمرفقي

وختموه بشعاري ثورة حتى النصر الخاص بحركة فتح، وثورة حتى التحرير الخاص بالجبهة الشعبية.

استعد الأسرى للإضراب، قبل أيام من بدئه بتناول السوائل فقط، وإفراغ معدهم، بالإكثار من الذهاب إلى الحمام، فهم يعلمون من تراكم تجارب الإضراب مغبة إبقاء شئ من الفضلات في الداخل، لأنها ستتحجر، وسيصعب إخراجها لاحقا.

وخبئوا كميات من الملح، هربوها من المطبخ، بمساعدة من بعض السُجناء الجنائيين اليهود، الذين يكرهون إدارة السجن ويعادون آشر، في الأماكن السرية في الغُرف، لأنهم يعلمون أنه مع أول يوم إضراب ستقتحم فرق القمع الخاصة الغُرف، وتصادر أغراض الأسرى.

تجاهلت إدارة السجن في البداية، إضراب الأسرى ومطالبهم، وراهن آشر، كما يفعل كُل مُدير سجن، على انهيار الإضراب من الداخل، وهو ما لا يحدث عادة، فلا يوجد من بين الأسرى، من يريد أن يظهر بمظهر الضعيف الذي لا يحتمل الجوع، وفي الوقت ذاته فإن قرارات الفصائل، تكون ملزمة لجميع منتسبيها.

في الأيام الأُولى، يعاني الأسرى من روائح الفم الكريهة جدا، وقرص الجوع لمعدهم، خصوصا في مواعيد الأكل الثابتة التي تعودوا عليها، ويصابون بالهُزال، والدوخان، وزيغ العيون، ويواجهون كُل ذلك، بعنفوان، وتعمل اللجنة القيادية للإضراب بتحفز وعلى مدار الساعة، لمواجهة مخططات الإدارة، ومواجهة إجراءاتها، ومن بينها التغذية القسرية للمضربين.

اليوم الثالث أو الرابع من الإضراب يكون حاسما، ومؤلما، تتحفز المعدة، وتستخدم كُل ما لديها من عصائر وانقباضات لتذكر بحاجتها للطعام، وتسبب صداعا غير محتمل في رأس المضرب، ويتغذى الجسم على الاحتياطي المخزن من دهون وسكريات.

يتذكر الأسير الأطعمة التي يحبها وتلك التي يكرهها، ولديه الاستعداد لتناول الأخيرة، ويتهكم على نفسه لأنه تعجرف يوما على البامية، أو البصل، أو الثوم، ويتمنى لو أنها تحضر الآن ليلتهمها، ويعبر عن مدى حبه واشتياقه لها.

بعد أسبوع من الألم، يشعر الأسير المضرب بضعف النظر، وبتساقط الشعر، وبعد عشرة أيام تزداد الآلام، وانهيار الجسم. في اليوم السابع عشر، تنقل الإدارة الأسرى للعيادة للفحص، وربُما تبدأ التغذية القسرية بواسطة الزوندة، وفي مرات غير قليلة، يُحدث المُمرض جرحا مقصودا في المعدة وهو يخرج الزوندة. بعد عشرين يوما يتعذر النوم، ولا نهاية للألم. كُل عضلة في الجسم تتألم، ويبدأ الجسم يتغذى على العضلات والعظام، ويواجه الأسرى كُل ذلك

بشرب كميات مقدرة من المياه ممزوجة بالملح، ويحتاج الأسير إلى قدرة لإجبار نفسه على شرب هذا السائل ذى الطعم المقرف على مراحل طوال اليوم، أو هكذا يصبح الأسير يشعر به، ويصبح حتى الكلام يتطلب جهدا، ويقلل الأسرى من تحركاتهم.

لم يظهر آشر أية ليونة، وخاطب الأسرى عبر ميكرفون من مكتبه، بلهجة عدائية، قائلا إنهم يستحقون الموت، مثلما استحقه مخربون قبلهم، ولكن دولة إسرائيل الديمقراطية، يقيدها قانون، ولو كان الأمر بيده، لرماهم للكلاب، التي رُبما تتقزز من أكل أجسادهم النجسة، مثل كل أجساد العرب، واعتبر أن الأسرى لا يعرفون مصلحتهم، وينجرون وراء الشعارات، وعليهم العودة عن الإضراب بأسرع وقت، لأن ذلك شرطه للتفاوض مع ممثليهم، وإلا فليتعفنوا، وتخرج روائحهم النتنة من السجن، إلى كل صحراء النقب.

وزج بعددٍ من قادة الإضراب في الزنازين الانفرادية، وتم جرهم على الأرض من قبل الشرطة، بطريقة مهينة، وبعضهم تم تجريدهم من ملابسهم أمام زملائهم، وخفرهم عراة مجرورين إلى الزنازين.

طال الوضع الصعب، وحرص إبراهيم البسة، على محاولة تدبير طعام لحكم، ونجح ذلك في الأيام الأُولى للإضراب، مستعينا ببقايا الطعام المتبقي لدى الأسرى، ولكن في الأيام اللاحقة، أصبح الوضع يزداد حرجا.

في ساحة الفُورة، التي تم تقنين خروج الأسرى إليها، عقابا لهم لخوضهم الإضراب، طلب الأسير عليان، من الغُرفة رقم ٤، من

إبراهيم البسة، التفكير بطريقة لتهريب حكم إلى غرفته، لتوفر طعام، بعد إجبار الأسرى، لأسيرٍ مسن على قطع الإضراب، خشية على حياته.

وبعد ثلاثة أيام، عندما خرج الأسرى إلى ساحة الفُورة، متعبين، متهالكين، هزلى، آخر ما كان يتوقعه الحُراس الذين يراقبونهم، أن أحدهم يخفي بين ملابسه، قطا جائعا، هزيلا مثلهم.

نام حكم تلك الليلة في غُرفة رقم ٤، وتمتع لأول مرة منذ فترة بوفرة من الطعام، ولكنه في الفجر، كان يشق طريقه بين الغُرف، ليعود إلى حُضن صديقه إبراهيم.

وفي الأيام التالية، عندما يجوع حكم، أصبح يعرف طريقه إلى غُرفة ٤، يصلها بعيدا عن أنظار الحُراس، ومن يراه منهم، يحسبه قطا طارئا ضل طريقه، إلى داخل السجن، وإنه في طريقه إلى الخروج منه.

صعد الأسرى من خطواتهم النضالية، وأضربوا عن الخروج إلى ساحة الفُورة، والحقيقة أن خروجهم أصبح يتطلب جهدا فوق طاقاتهم، وأصبح حكم رسُولهم بين الأقسام، عندما يجوع ويستعد للذهاب إلى غُرفة رقم ٤، يطوي إبراهيم أوراقا بشكل جيد، كتبها ممثل الغُرفة، بعبارات مشفرة، ويعلقها في رقبة حكم، الذي يسارع إلى نقلها.

وفي الغُرفة رقم ٤، عندما تحين عودة حكم، يعلقون الأوراق المشفرة في رقبته، منتظرين الإجابات في الساعات التالية، أو اليوم التالي.

وأصبح ذهاب وإياب حكم، من غُرفة ١ إلى غُرفة ٤، كمراسلٍ مكشوفا ومفضوحا بالنسبة للحُراس، الذين فشلوا أكثر من مرة بالقبض عليه، ولكنهم لم يُسلموا بالفشل، ففي فجر اليوم الثاني والعشرين من الإضراب، اقتحمت قوة من القوات الخاصة غُرفة رقم ١، ولم يكن الهدف الاعتداء على الأسرى المتهالكين، الذين هدهم الجوع، وإنما القبض على حكم، وخرجوا بعد أن أتموا المهمة بنجاحٍ.

٢٥

علم إبراهيم البسة، من شهود عيان من الأسرى الذين كانوا يُنقلون إلى عيادة السجن، بسبب تفاقم وضعهم الصحي، بأن آشر بنفسه، وضع حكم بعد إدخاله في كيس خيش، في مركبة تابعة لقسم التموين، لرميه بعيدا عن السجن، خارج مدينة بئر السبع.

أوقف الأسرى الإضراب، بعد تحقيقهم مطالب جزئية، وبعد جلسات تقييم للموقف الداخلي والخارجي، وأخذ الظروف الموضوعية والذاتية بعين الاعتبار، واعتبرت قيادة الأسرى، في تعميم وزعته عليهم، أن ما حققوه يعتبر إنجازا نسبة للظروف التي تمر بها فلسطين، ودول الشرق الأوسط، بعد ما وصفوها خيانة الرئيس السادات، وتحرك الشارع الإيراني بشكل يهدد عرش شاهنشاه، وتردي الوضع العالمي، والعلاقة المتوترة بين المعسكرين الشرقي الاشتراكي والغربي الرأسمالي الإمبريالي المعادي لحقوق الشعوب في تقرير مصيرها.

كان إبراهيم البسة شاهدا على لحظات الأسير موسى الأخيرة. تضرر موسى من الإضراب الأخير، ولا يعرف أحد كم مرة تقصد الحوفيش إيذاء معدته وهو يدخل الزوندة ويخرجها منها، خلال التغذية القصرية، فتدهورت حالته الصحية بشكلٍ لافت، وهبت محاميته فيلتسيا لانغر لإنقاذه. يسمي الأسرى المحامية اليهودية المؤيدة لحق شعبهم في التحرر وتقرير المصير "الحاجة فولا" تحببا. وخلال الإضرابات التي يخوضها الأسرى لا تهدأ، وتكثف نشاطها، وتلجأ إلى محكمة العدل العليا الإسرائيلية لاستصدار أوامر احترازية سريعة، لإنقاذ موكليها، وهو ما فعلته مع موسى، وتمكنت من إجبار إدارة السجون على نقله إلى مستشفى إسرائيلي لتلقي العلاج وإنقاذه من حوفيشات سُلطة السجون، الذين ليس لهم علاقة بمهنة التمريض، وإنما هم تروس في عجلة القمع والتعذيب داخل السجون.

وبعد تحسن صحته عاد موسى إلى رفاقه الذين أنهوا إضرابهم، وبدأوا بترميم أوضاعهم، وفي ذلك اليوم، كان موسى يقف بجوار سرير حديدي مزدوج في الغُرفة، مفضلا عدم الخروج إلى الفورة، مستمتعا بكأس من القهوة، التي كانت إنجازاً لا يمكن الاستهانة بها حققه إضراب الأسرى الذين كفروا بالشاي الكافوري الذي لا طعم له، المخلوط بالمادة المهدئة للواعج الجنسية، والتي اكتشف العرب قديما خصائصها.

وافقت الإدارة على السماح للأسرى بالتزود بوجبةٍ من القهوة مرة في الأسبوع، إضافة للشاي الذي يقدم مرة واحدة كل يوم.

كان موسى يرتشف القهوة على مهل، ويمج نفس من سيجارته "الخنتريش" وفقا للتسمية المتداولة بين الأسرى للسجائر النتنة بدون فلتر التي تُقدم للأسرى، يتذوق موسى رشفات القهوة، وأنفاس السجائر مختبرا طعما قديما جربه فمه، غير مبالٍ بلسعات سيجارة الخنتريش الحادة لشفتيه. ينظر إلى الأمام، إلى فضاء غير مرئي، يضع كاسة القهوة على حافة السرير المزدوج العليا لتستريح، معطيا نفسه فرصة ابتلاع نفس من السيجارة، نافثا الدخان إلى الكاسة كنوعٍ من الدلال والاحتفاء بالقهوة الغائبة قصرا عن سنواته السابقة في السجن، يجرب اختبار مشاعره تجاه المحبوبة السمراء التي تُصب في الفناجين، كما قال ذلك منغما مستذكرا أبيات من أشعار الأحاجي عن المشروب المر اللاذع.

ترنم موسى بأغنية محببة للأسرى لطالما رددوها:

مشي يا خوي ومشي معاي
قتلوا أخويا عداك وعداي
ثارك ثاري وعارك عاري
اشتقت لداري أنساها إزاي؟
الخيمة السودا بقت لي دار
داري سلبها عدو وجار
المجد العربي إزاي إنهار؟
وأصبح بعد العزة حكاية..!
مشي يا خوي ومشي معاي
بلدي الخضرا دي أم الخير

كيف نتركها تروح للغير

صوت الحق ما عاد له نصير

شيل سلاحك ولبي نداي

وبينما كان إبرهيم البسة من برشه يراقب موسى، وهو يرتشف أيضا القهوة، ويمج سيجارته، رآه يضع السيجارة في فمه، ويتحسس يده، ثم عاد لرشف القهوة ونفث الدخان، مكملا الأغنية بصوت متحشرج هذه المرة:

مشي معاي يا أغلى حبيب

نرجع بلدي..بلدي سليب

حكاية الظلم بتل أبيب طالت

والله دي عايزة نهاية

مشي يا خوي ومشي معاي

ولكنه ما لبث أن تحسس يده، وجلس على الجزء السلفي من السرير متحسسا صدره، وعندما حاول الوقوف ليلتقط كاسة القهوة من أعلى سقط على الأرض. أسرع إليه إبراهيم وتبعه بعض الأسرى وانتشر الخبر بسرعة للأسرى في ساحة الفورة عن تدهور حالة موسى، وبدأ الأسرى يصرخون ويطرقون على الأبواب ليأتي الطبيب ولكن لا طبيب مناوب، وأتى الحوفيش، الذي وصل بعد نحو ساعة، وقرر نقل موسى الغائب عن الوعي إلى المستشفى.

انتظر الأسرى أية أخبار عن موسى، وطلبوا مقابلة آشر للاحتجاج على تأخر تقديم الإسعاف لزميلهم، وأراد شاهين الغاضب تذكيره بعبارة دستويفسكي عن ظروف الأسرى ومستوى

الحضارة، ولكن آشر لم يظهر، وفي اليوم التالي وصل الأسرى الخبر المفزع، برحيل موسى، الذي اعتبر شهيد الإضراب الأخير. غضب الأسرى وأضربوا عن تناول وجبات الطعام في ذلك اليوم، وأنشدوا بحسرة:

دمعي على خدي جرى
فابتل ثوبي فلترى
النار تبكي مهجتي
وأعين تبكي ما ترى
ما كنت يوما خائفا
بل في جسدي حزني سرى
أماه أبكي حسرة
في لوعة مما جرى

وكان عليهم مواصلة النضال في هذا المكان الأصفر المحاط بالرمال الصفراء.

٢٦

أصبحت ذكرى الشقراء وحكم، وتصرفات آشر، وما اعتبروه اهتزازا بشخصيته في طريقة معالجته القضية، نوعا من المفارقات التي يستذكرها الأسرى في أيامهم ولياليهم الطويلة، التي يبدو أن لا نهاية لها.

ولكن بالنسبة لإبراهيم، بدا أن الأمر لا يمكن أن ينتهي هكذا، برمي حكم بعيدا، وكان على يقين، بأن الحكايات في السجن، غير

تلك التي تحدث في أي مكان آخر في العالم، لا يمكن أن تنتهي هكذا، برضوخ، وبدون وداع، وبتحكم طرف قوي واحد فيها، كان للأسف هذه المرة آشر المضطرب نفسيا، والذي سيكون مكانه على مزابل التاريخ، هذا إذا قبلت به، كما حال كُل المتغطرسين من أباطرةٍ كبار إلى جلاوزةٍ صغار.

بعد انتهاء الإضراب، ومحاولة العودة التدريجية للأسرى إلى نمط حياتهم السابقة في السجن، محاولين استغلال ما حققوه من إنجازات، حتى لو كانت بسيطة، تنفتح شهيتهم على الضحك، وتبادل النكات، وهم يتدربون على العودة لتناول الطعام، وازدراده بعد أيام من شرب السوائل، لتنشيط المعد التي أصابها العفن.

كثير من زملاء إبراهيم البسة، كانوا دائما يسألونه عن حكم، ومتى سيعود؟ وكم سيحتاج لوقت حتى ينساه؟ وتوقع البعض مازحين، بأنه عندما سيخرج يوما ما من السجن، سيجد حكما يقف أمام البوابة، متزن الذيل، مثبتا مخالبه في الأرض، مستقيم الشاربين، رافعا أذنيه، سيصدر أصوات الفرح، عندما يرى صديقه يخرج من البوابة، مصدوما من أول لقاء له مع الحُرية، فيجري إليه، ليدله على الطريق، ولكن أي طريق سيسلك إلى البيت، إبراهيم ليس له منزل الآن في الأراضي المحتلة، وإنما هناك في المهجر، عندما تركهم ونزل في دورية تضم فدائيين، قطعوا نهر الأُردُن المُقدس، ليس ليتقدسوا بمائه، أو يقتفون آثار بني إسرائيل وقائدهم يوشع بن نُونٍ، الذي يوجد مقام له في قرية أشوع جارة صرعة، وإنما ليخلصوا البلاد والعباد، ممن يدعون بأنهم أحفاد يوشع، وموسى، وإبراهيم، وبأن الرب وعدهم بالبلاد، ورخص لهم قتل العباد.

أشوع أصبحت اشتاؤول، حولوها إلى غابة، أرادوا تحزيم القُدس بالأخضر، بنباتات لا تشبه القُدس، جغرافية سويسرية نموذجية. غابة اشتاؤول، اسم قرية أشوع الجديد، التي أصبحت أشجار في تربة غير تربتها، وعلى ركام منازل أهلها المشردين، وأشوع الاسم الذي طوره فلاحو بر القدس ليوشع بنُ نُونٍ، هل هو قاتل أم نبي؟ مجرم الحرب هذا تبناه أصليو البلاد.

ما هي قوة تلك الأيديولوجيات القادرة على كل هذا الاستلاب لتجعل الأصليين، يعلون من مجرم حرب إلى مرتبة النبوة؟

في السجن، ومثل باقي الأسرى من جيله الذين اعتقلوا أغرارا، ومداركهم، تفتحت على الشعارات القومية والوطنية، وضرورة إنهاء أثار الهزيمة، ولم يكونوا يملكون سوى الإرادة، والحماسة، تفتحت مداركه أكثر، من خلال القراءة، والوقوع في سحر الفكر اليساري، الذي كان يشهد فورة انتشار في العالم كله، وخصوصا شعوب العالم الثالث، التي تتحرر وتواجه الغطرسة الأميركية.

٢٧

بعد أربعين يوما، بالتمام والكمال، كما حسبها إبراهيم البسة، شعر ليلا، بحركة مصحوبة بمواء على شُباك الغُرفة.

صرخ:

ـ لقد عاد حكم..!

ووجد نفسه، مع علي كوبرا وآخرين، يقفون أمام الشباك

وينظرون إلى القط الذي يموء على حافة الشباك الصغير، ويحك رأسه بالقضبان الحديدية، محاولا الدخول.

ولكن كيف سيتمكن حكم من الدخول من الشباك محكم الإغلاق بالقضبان، والمنخل الحديدي الرفيع الناعم، والذي يقع كباقي شبابيك غُرف الأسرى، في مرمى رقابة الأبراج العسكرية؟

تطوع النمس بمهمة مساعدة حكم على العودة إلى غرفته. ليس لدى النمس مواهب بارزة، غير تلك التي يفطن لها الأسرى لمتطلبات معينة، فهو الذي يلتقط أي شيء يجده، ويعمل على إخفائه، بحنكةٍ وحذر، لأنه على قناعة بأنه سيلزم في موقفٍ ما، وتثبت المواقف والظروف، بأنه كان دائما على حق.

اقترب النمس من الشباك، وهو يحمل مسمارا صدئا، أخضعه لعملية سن وطي سابقا، بحيث أصبح مدببا وله رأس معقوف، وأحدث فتحة في المُنخُل العازل، بينما حكم يطلق صوتا ضعيفا مخنوقا، لعله من تعب رحلة العودة الطويلة، ومد النمس يده محاولا إمساك أي جزء من جسد حكم، الذي جهد لتثبيت نفسه على الحافة الصغيرة للشباك الصغير، وعندما أفلح الأول بالإمساك بالثاني، أخذ يساعده على إدخال جسده من فتحة صغيرة بين قضيبين، ثم من فتحة المُنخُل، وعندما نجح أخيرا، فرد إبراهيم البسة يديه، ليسقط حكم فيهما، بينما انشغل النمس، في سد الثغرة التي أحدثها، بأكبر قدرٍ من المهارة لجعلها كحالتها الأُولى، حتى عندما يتم اكتشافها، سيظهر بأن ما أصابها، سببه تأثير عوامل الزمن، والمناخ.

احتفل الأسرى، في الساعات اللاحقة، بعودة حكم، وإن توجسوا من الأيام المقبلة، عندما يعلم آشر بعودته، ويستغلها للمزيد من التنكيل بهم.

قال علي كوبرا، المرحب بعودة حكم، هل تعرفون بأن أجدادنا، حتى لفترة قريبة، كانوا يحسدون القط، المعفي من الضرائب الباهظة، التي فرضها عليهم العثمانيون؟

الضرائب التي لا يعرفون عددها ولا كنهها، السلطان يلزمها للوالي، والوالي للباشا والباشا للأغنياء والمضاربين، والصيارفة، الذين يلزموها إلى أغنياء ومضاربين، وصيارفة آخرين، الوكلاء يأخذون لأنفسهم الميري (العشر)، كيف يتم تحديده على مساحة الأرض، أم على كل نير يربط على الثيران أو مساحة الأرض المحروثة يوميا؟ فرضوا على الناس إطعام الجنود في مسيرهم، وضريبة الطرق وضريبة الأغنام، والمُحرمية، وضرائب عدد رؤوس الثيران، والكودا على رؤوس الحيوانات، غنم وجمال، ويركو *على قيمة الأرض، وليرة ذهبية على كل رأس إنسان تدعى (كروزة)، وفرضوا على كل ذكر العلم سخرة في الطرق أو أن يدفع بدلا.

الفلاحون هزجوا بمرارة، وكأنهم سيبقون العمر كله، ضحية السلاطين، والولاة، والباشاوات، والملتزمين، والآغات، والبكوات:

"يا هنيالك يا ها القط
يا اللي ع الحيطان بتنط
مال ميري ما عليك
ونظامية ما بتحط"

اليركو: ضريبة عثمانية طالما شكا فلاحو فلسطين منها ومن غيرها من الضرائب.

وهتف علي كوبرا بحماسة: عاشت القطط، وليسقط آشر..!

وهزج بعفوية:

"يا حكم يا أبو المحاكم

وإنت في بئر السبع حاكم

أنت فوق وعلى قفا آشر جاثم"

أثارت المنظومة هرج الأسرى، وطالبوه بإعادة ما قاله، ولكنه وجد صعوبة، في إعادة ما قاله بسلاسة، واقترح أن تكون المنظومة، فاتحة لقصيدة تُمجد حكم، يشارك فيها الأسرى، ولتصبح نشيد حكم القومي، ويمكن أن تُسمى (حكماه) ردا على نشيد آشر ودولته (هتكفا).

أما بيتر فارس، فرأى أنه يمكن أن يستعرض مكانة القطط في الأساطير وديانات واعتقادات الشرق القديم، وقال بثقة، إذا بحثوا في النقب فسيجدون حتما، تماثيل، وتمائم، ولقى، تحاكي القطط، لا شك بأن الفراعنة خلفوها في هذه الصحراء.

وهمس، ثم بصوت أكثر ارتفاعا: "باستيت"، وشرح، بأن الفراعنة عبدوا هذه الإلهة، وتخيلوها على شكل قطة وديعة. الإلهة باستيت، هي ابنة إله الشمس رع، رسموها امرأة برأس قطة، حنونا وادعة، أنثى، امرأة، إلهة.

احترم الفراعنة القطط، ومنحوها صكوك سفر للآخرة، حنطوها، ودفنوها باحترام، وعثر المنقبون على مقبرة تحتوي على أكثر من مليون قطة حُنطت ببراعة. حكم سليل الحضارات، أين آشر ودولته، ابنة الأمس، من كل ذلك؟ لن تغير تدابيره الانتقامية من الحقيقة شيئا.

وفوجيء بيتر من كلامه الذي نبهه بقوة لحكم العائد، واستغرب من نفسه لأنه لم يبد اهتماما بالشقراء، ودراسة سلوكها، ويبدو أنه لم يقدرها حق قدرها، وتعامل معها باعتبارها قطة بيتية عادية، وانسحب الأمر على ابنها حكم، ولكن في لحظة إشراق، كما سيحلو له القول فيما بعد، أمسك حكم العائد، ونظر إليه مليا وهتف، محاولا إحداث أكبر وقع من التأثير لدى رفاقه في السجن:

- يوركا...يوركا..!

وأخذ يتأمل القط المتفاجيء، الذي حافظ على الأدب ولم يحاول خرمشة يدي بيتر المتفحصتين، احتراما لصديقهما المشترك إبراهيم، وباقي رفاق الغُرفة.

قال بيتر للآذان المتوثبة السمع، يشك بأن حكم من فصيلة (قط الرمال العربي)، ولكنه أكد، إيفاء للتقاليد العلمية، بأنه من الصعب التأكد من ذلك بدون فحص، وإذا كان حكم فعلا قطا رمليا عربيا، فإن ذلك سيكون تسجيلا جديدا ومهما، لوجود هذا القط الرملي المميز في صحراء النقب، لأنه كما درس، فإنه مهدد بالانقراض، لمطاردة الإنسان له، حتى في مكامنه في الصحراء.

تحسس بيتر الشعر الناعم الكثيف الذي يغطي جسد حكم، ويحميه من برودة ليالي الصحراء، وتأكد من سماكة جلده، وفرائه أسفل بطنه، ورأى حلقتين سوداوين قبل نهاية ذيله الذي يصبح في نهايته أسود، ومن الشعر الكثيف في باطن أطرافه الأربعة، وشاربه الأبيض.

ضحك بيتر بعد أن أنزل حكم، وخاطب إبراهيم: "المدهش في

الأمر إذا كان حكم قطا رمليا عربيا قحا، هي قدرتك على ترويضه، فالعداء بينه وبين أبناء جنسك يا إبراهيم راسخة، لدى القط الرملي قدرة جذب غريبة تجعل الإنسان يلاحقه، معجبا، ويتحول الإعجاب بشكلٍ عجيب، إلى نزعة انتقام لدى الإنسان، غير مبررة، فيطارده لإمساكه، ولكن المطاردات تنتهي بإطلاق النار من قبل الإنسان على القط الجميل المسكين، لماذا نقتل أو نحاول قتل كل جميل نجده في صحرائنا، وفي غيرها؟".

استعرض بيتر، المعلومات التي يعرفها عن القط الرملي، وأخبر رفاقه، بأن لهذا القط سمعا حادا، يساعده على تتبع أصوات القوارض وهي في جحورها التحت أرضية، ويحفر لاستخراجها، ومن تكتيكات الصيد التي يستخدمها، تمدده على الرمال، كقطعةٍ واحدة لا يبرز منها شئ، ثم ينقض على الفريسة لدى اقترابها منه.

وأكثر ما أثار انتباه الأسرى، ما قاله بيتر عن عدم حاجة القط الرملي، الذي تكيف مع ظروف الصحراء لشرب الماء، ويكتفي بحاجته منه، من فرائسه من الطيور الصغيرة والزواحف والثدييات.

ويفضل القط الرملي، العيش منعزلا، وحيدا، ويلتقي مع الأنثى مرتين في السنة، ليس للتمتع بالجنس، ولكن تقودهما غريزة البقاء، فيتزاوجان، ولا يوجد أي التزام للقط نحو أبنائه، التي تتولى رعايتها الأنثى وحيدة في ظروف الصحراء المؤلمة، والقاسية، التي لا تعترف بالضعفاء الصغار.

وتحمي الأنثى صغارها، التي تبدأ بالرؤية بعد أسبوعين، وفي الأسبوع الثالث تبدأ بالمشي وتفطم في الأسبوع الخامس، وبعد

أربعة أشهر تغادر الأم المضحية، تاركة صغارها الذين لم يعودوا كذلك، لبدء حياتهم الجديدة، لوحدهم على الرمال الساخنة.

وعندما يقترب عمر القط من العام، ستقوده غريزة البقاء، للقاء الأنثى مرتين في العام، لمواصلة مرحلة جديدة من تاريخ السلالة، في الصحراء التي يتبدل سادتها، يأتون ويذهبون، ويتقاتلون، على أرض القطط.

لم يبذل البسة أو حكم، الذي أصبح له أيضا، بعد الكشف البيتري اسم آخر (حكم الرملي)، أي جهد لإخفاء العودة المظفرة، وأخذ حكم يجول في الغُرفة ويتنقل بين بُروش الأسرى، ويخرج معهم إلى ساحة الفُورة، وبعد عدة أيام، تنبه الحُراس لحكم باستغراب واندهاش عظيمين، ولكن أكثر المستغربين كان آشر، الذي اعتقد بأنه بقراره الذي وصفه بالرحيم والحكيم، برمي حكم بعيدا، قد تخلص منه للأبد، وبأكثر الطرق راحة لضميره.

في عصر أحد الأيام، اقتحمت القوات الخاصة الغُرفة، وألقت القبض على حكم وقُيد مخفورا، وهو يئن، بينما لم يتمكن أي من الأسرى الذين تم إخراجهم من الغُرفة وحجزهم في ساحة الفُورة، من عمل شيء، أو معرفة ماذا حصل داخل غرفتهم.

قرار آشر، كان حاسما هذه المرة، ونقل الأسرى العُمال ما حدث لإبراهيم البسة وزملائه.

٢٨

حضر آشر إلى القفص الخاص بالكلاب البوليسية المدربة، ونظر داخله مليا، ومد يده، من خلال القضبان، وداعبها. إنها من وحدة

(اوكتز)، وهي وحدة الكلاب الرئيسية في الجيش الإسرائيلي، التي تحظى باهتمام خاص من هذا الجيش، وتوكل للكلاب المدربة في هذه الوحدة مهامٍ عديدة، في ملاحقة المطلوبين الفلسطينيين، وخلال الاعتقالات الليلية التي تُنفذ من قبل الجيش الإسرائيلي وأجهزة الاستخبارات المختلفة.

ويعلم آشر أنه في أحيانٍ كثيرة، نجحت الكلاب التي تخدم في هذه الوحدة بالإيقاع بمطلوبين فلسطينيين، بعدما عجزت قوات الجيش الأخرى، فبعض هذه الكلاب المدربة، التي يوضع عليها مجسات إرسال تتمكن من الوصول إلى مخابيء المطاردين الفلسطينيين، وترسل عبر المجسات المثبتة عليها، المعلومات المطلوبة للوحدات الخاصة في الجيش.

ومن اطلاعه على محاضر تحقيق مع بعض المطاردين الذين أُلقي القبض عليهم، عرف آشر بأن الفدائيين الفلسطينيين، طوروا طرقا لمواجهة حاسة الشم التي لا تضاهى لدى الكلب الكنعاني، وذلك برش كميات غير مرئية من الفلفل الأسود على الأرض، حيث ثبت بالتجربة لديهم، أن الفلفل الأسود يعطل حاسة الشم لدى الكنعاني أو يشتتها.

ويفخر المجندون والمجندات في وحدة اوكتز بكلابهم، ويعتبرونها زملاء وزميلات، ويصل الهوس لدى أفراد هذه الوحدة، وآخرين من وحدات أخرى، بكلابهم، إلى درجة يوصون بالدفن معهم في حالة قُتلوا خلال المعارك أو المهام، بينما عمد أفراد عائلات جنود قتلوا

إلى وضع تماثيل على أضرحة موتاهم تمثل كلابهم الخاصة التي ارتبطوا بها.

وآشر الذي يسخر من هذه التصرفات، ويعتبرها أعراضا لأمراضٍ نفسية، ويستدعي عقله كل هذه المعلومات، كان مشغولا بأمرٍ آخر.

قصد آشر الغُرفة الجانبية التي يُروض فيها الكلاب الكنعانية الخاصة به، وترك الباب مفتوحا، عندما دخل إلى الغُرفة برفقته عدد من رجال الشرطة، وبتلر الأسود يحمل حكم المخفور في كيس متوسط الحجم، تم إغلاق فتحته بإحكام.

أراد تجربة ما يمكن أن تفعله الكلاب بحكم، وتسجيل ما يحدث. لطالما نسبت الدكتورة منزل معظم تجاربها على الكلب الكنعاني لنفسها، وتجاهلت المساعدات التي قدمها الآخرون لها، ومن بينهم والده، الذي زودها بعددٍ مهمٍ من الكلاب، وبألوانٍ مختلفة، وعرفها على عربٍ آخرين، خصوصا من البدو، الذين يعرفون أكثر من غيرهم عن الكلب الكنعاني.

زار آشر الدكتورة منزل أكثر من مرة، في مركز إيوائها الكلاب الكنعانية، بعد وفاة والده، وألقى مرة نُكتة، ندم عليها لاحقا، حين قارن بين مركز إيوائها لكلاب البلاد، وجهودها لمنعها من الانقراض، واستيلادها، وجمع شتاتها، وإيواء دولة اليهود، لليهود الشرقيين في مخيمات التأهيل، قائلا بأن الهدف من المركزين، الحيلولة دون انقراض كلاب البلاد، ويهود البلاد.

ابتسمت الدكتورة منزل، وقالت:

- على كُل من يقدم شيئا للبلاد، أن يفخر بما يقدمه..!

وها هو يشعر الآن، بعنفوان ما سيقدم عليه. طلب آشر، من بتلر، إخراج حكم بروية من الكيس، وبإشارة منه قُذف حكم المذهول مما يحدث حوله، بين الكلاب، ولم تكن الكلاب التي لم تتناول مخصصها من الطعام الخاص بها منذ الصباح، بحاجةٍ إلا لمثل هذه الهدية حتى تظهر حقدها الأبدي تجاه القطط، وأسوأ غرائزها.

لطالما سمع من جدته إحدى الأساطير اليهودية، عن سر العداء بين الكلاب والقطط، وكانت الجدة تأسره وهي تحكي له كيف كان الكلب والقط صديقين في زمن آدم، ويكادان لا يفترقان، ويتشاركان ما يحصلان عليه من طعام، ولكن دوام الحال من المحال، حتى في الصداقات والشراكات الأخوية، فبعد فترة وجدا صعوبة في تحصيل أكلهما، ومع مرور ثلاثة أيام عليهما بدون أن يذوق أي منهما لُقمة، اتفقا على الفراق، وأن يذهب كلٌ في سبيله، ليبحث عن أكل ومأوى، واشترطا على نفسيهما أن لا يذهب أي منهما إلى المكان الذي سيذهب إليه صديقه. القطة ذهبت إلى بيت آدم، متوقعة أن تجد فيه فائضا من الأكل. استقبلها أبو البشر، وقدم لها ما يمكن أن يُقدم لضيف، وعندما عرف لاحقا مهارتها في صيد الفئران، فرح بها، ودللها وشجعها على تخليص البيت من الحيوانات الكريهة، التي عاشت قبل ذلك في وئام مع القطة، إلى أن طلب الفأر من الرب أن يجعل القطة طعاما له، فجعله الرب عقابا له طعاما للقطة، لسوء نواياه، ولكن، لأن رحمة الرب واسعة، كان حريصا على عدم إفناء الفئران، وجعلها تستمر في التكاثر.

الكلب توجه إلى بيت الذئب، وفي الليل سمع دبيب أقدام، فنظر ليعرف من الآتين، فوجد أنها حيوانات متوحشة، فأشعر الذئب بذلك، وطلب منه هذا أن يهاجم الحيوانات المعتدية، ويبعدها، وهو ما كلفه جهدا وعناء أكبر من طاقته، وكاد يفقد حياته، فغادر في اليوم التالي، لا يعرف إلى أين سيتجه، جرب الذهاب إلى القرد، الذي رفض أن يأويه، فذهب إلى النعجة المسكينة، التي سعدت بوجود الكلب حاميا وحارسا، وفي الليل، جاءت الذئاب، فنبح محاولا إخافتها، ولكن نباحه نبهها إلى مكان النعجة فافترستها.

بعد واقعة موت النعجة، هام الكلب على وجهه أياما، قبل أن يلجأ مضطرا، إلى منزل آدم، الذي تعيش فيه القطة منعمة، سيدة، استقبله أبو البشر، ولكن القطة لم يعجبها وجود هذا الحانث بشرطهما.

أخذ الكلب ينبح في الليل، ونبه آدم إلى وجود الحيوانات والوحوش المتربصة، مما جعل سيد المنزل، يجهز عدة الصيد ليقتلها، ويبعد شرها عنه، ولكن القطة شكت من النباح، ومن الكلب، ومن وجوده الثقيل، ولم تقبل بكلام آدم المهدىء للنفوس، بأنه يرغب بوجود الكلب في منزله لفائدته، وأن وجوده لن يؤثر على مكانة القطة، ولكنها لم تقتنع، وأخيرا اضطر الكلب إلى مغادرة منزل آدم، إلى منزل سيدنا شيث ابن آدم، وبهذا حدثت القطيعة النهائية بين الصديقين القديمين، ونشأت عداوة ورثتها أسلاف القطة والكلب إلى يوم الناس هذا، وما زالت قلوبهما ملآنة، لم ترطبها السنون.

رأى آشر كلابه تنهش حكم، وتمزقه، ولم تترك له الوقت الكافي

ليمضي على مصيره المأساوي، الذي لم يكن يتوقعه، عندما قرر العودة من الصحراء، إلى سجن البني آدميين هذا، وعندما اطمئن آشر، على أن حكم لن يظهر مرة أخرى، ليس فقط في سجنه، وإنما في هذه الدنيا، بفضل تقديره الصحيح للكلاب الكنعانية، غادر إلى مكتبه، وضميره مرتاح، مُحملا مصير حكم لحكم نفسه، الذي لم يستغل فرصة الحياة التي منحها له في المرة الماضية، وخياراته الخاطئة، بالعودة إلى كنف المخربين.

ولأنه يريد تأكيدا إلى ما ذهب إليه، سأل بتلر عن رأيه في رحمته تجاه حكم، فقال له بتلر:

ـ حكم قط غرور، لم يعرف أين مصلحته..!

٢٩

عندما كان حكم يتمزق، لم يكن البسة يعلم بما حدث، ولم يتوقعه، ولكنه عندما سمع لاحقا رواية الأسرى العُمال، وما نقله له بتلر عن اغتيال حكم، تذكر بأنه في الوقت الذي كان فيه حكم يتلاشى، كان قلبه هو نفسه يتمزق، وكأنه حدس ماذا حصل لرفيقه. وساءه كثيرا أن يتلاشى قط البلاد بأنياب كلاب البلاد.

لغة الأسرى اليومية في سجون الاحتلال الإسرائيلي
ملحق

مثلما تشكل أي مجموعة مهنية أو اجتماعية لغتها الخاصة وتبتكر ألفاظها، التي تفتن علماء اللغة بدلالاتها ورموزها، حدث الشيء نفسه بالنسبة للأسرى الفلسطينيين والعرب في السجون الإسرائيلية.

ومنذ الاحتلال الإسرائيلي لما تبقى لفلسطين، وأراضٍ عربية في حزيران ١٩٦٧، طور الأسرى مفردات خاصة بهم يتم تداولها بشكل كبير داخل السجون حتى أصبحت "لغتهم" الخاصة بهم.

فيما يلي تعريفات لكلمات، أو مصطلحات، وردت في النص وأخرى لم ترد، أوردها هنا بتصرف عن الباحث عيسى قراقع، الذي يقول إنها اكتسبت خصوصية واقع الأسرى الصعب والمعقد، الذي يمثل حالة اجتماعية وسياسية فريدة، أفرزت منظومة تعبيرات.

- الافرادة: كلمة عبرية تعني الفصل أو العزل الانفرادي، وهي تطلق على (الإكس) التي يوضع فيها الأسير المعزول.

- الإكس: مفردة تطلق على الزنزانة الصغيرة التي يوضع فيها الأسير، إما للعقاب أو التحقيق. وهي صغيرة الحجم ولا تتسع لأكثر من أسير، وتخلو الإكس من مرحاض، ويوضع فيها أحيانا تنكة لقضاء الحاجة، وبعض الإكسات، وخاصة التي تستخدم للتحقيق، يوجد فيها مرابط حديدية لتقييد أيدي وأرجل الأسير.

- الزنزانة: حجيرة صغيرة مظلمة وقذرة، تنبعث منها رائحة كريهة وترتفع فيها الرطوبة، وفي فصل الشتاء باردة جدا، وفي الصيف حارة جدا، جدرانها صماء، وقد تحتوي على نافذة صغيرة جدا تسمح بنور ضعيف، وقد تكون مظلمة تماما، ولا تحتوي الزنزانة على أي نوع من المرافق، فلا ماء فيها ولا مرحاض، وباب الزنزانة من الحديد المصفح ومغلق بقفلٍ كبير. وقد يجد الأسير في الزنزانة بُرشا.

- البُرش: لفظة تطلق على الفرشة التي تعطى للأسير بقصد استخدامها للنوم، وهي في العادة عبارة عن قطعة إسفنج مغطاة بثوب من القماش الرقيق.

- الشبح: أسلوب في التعذيب عبارة عن تقييد يدي المعتقل بماسورة أو مربط في حائط بحيث يبقى المعتقل واقفا ولا يستطيع حراكا سوى نقل ثقل جسده من رجلٍ إلى أخرى، فالأسير لا يستطيع تحريك يديه ولا يستطيع النوم أو الذهاب إلى الحمام أو الجلوس، ويوضع على رأسه كيس خيش قذر، رائحته نتنة، وأحيانا يوضع كيس إضافي، ولا يوجد وقت محدد لمدة الشبح، وتعتمد على تقدير رجل المخابرات الذي يحقق مع المعتقل، وهناك نوع آخر من الشبح الذي يتم بتقييد أيدي الأسير على كرسي من الخلف وأيضا تقييد رجليه وتغطية رأسه.

- العروم: كلمة عبرية تطلق على تفتيش الأسير وهو عار أو شبه عار من الملابس ويعتبره الأسرى من أبشع أنواع التفتيش لما فيه من امتهان لكرامتهم.

- الزوندة: أنبوب التغذية الصناعية المطاطي الذي من خلاله يتم إدخال الغذاء السائل من حليب أو غيره إلى المعدة مباشرة ودون المرور بالفم، ويتم استخدام هذا الأسلوب بعد مضي أسابيع على إضراب الأسرى، والخطورة فيه أن المُمرض أو الطبيب الذي يشرف على إدخال الأنبوب أو يدخله بنفسه، يتعمد عندما يخرجه جرح المعدة وإيذاء الأسير، وتتم العملية بينما الأسير يقاوم ويرفض لأنه مصر على الإضراب، وارتقى عدد من الأسرى في أثناء هذه العملية، شهداء.

- التمام: الإجراء اليومي الذي تتطلع به مجموعة من ضباط وحُراس السجن، لإحصاء الأسرى بعدهم فردا فردا، ويتراوح عدد المرات لهذه العملية بين ٣- ٥ مرات يوميا تبعا لنوع المنشاة أو السجن أو معسكر الاعتقال.

- التشخيص: التدقيق في صورة كُل أسير موجودة في بطاقة خاصة لدى شُرطة السجن للتأكد من شخصيته، ويجري التشخيص بإلزام الأسرى الوقوف داخل غرفهم أو زنازينهم أو خيامهم، وتحمل البطاقة إضافة إلى الصورة واسم الأسير، اسم التنظيم الذي ينتمي إليه، وإشارات معينة مثل (سجين خطير) أو (محاولة هرب) أو (مرض عقلي)، ويتم التشخيص في ساعات المساء وقبل إجراء التمام المسائي.

- الجرد: ويتم سنويا، حيث توزع إدارة السجن طواقم من رجال الشرطة على أقسام السجن مزودين بملفات إحصاء لكل حاجيات الأسير ولوازمه التي تسلمها من إدارة السجن، وتسجيلها باسمه

في ملفه الخاص، ويتم مصادرة أية ملابس أو أغراض زائدة.

ـ العصافير: يطلق الأسرى على العملاء اسم "العصافير"، وعلى من يصبح عميلا "عصفر" أي أصبح "عصفورا". ومنذ سنوات تضع إدارة السجون الإسرائيلية هؤلاء العملاء في غُرف خاصة بهم، تحت إشراف المخابرات التي تستخدمهم لإجبار الأسرى على الإدلاء باعترافات.

وغرفة العصافير هي عبارة عن غُرفة مخصصة للمتعاونين مع الاحتلال، وتكون منفصلة عن سائر غُرف المعتقلين في السجن، ولا يسمح للعملاء بالاختلاط بسائر الأسرى أو رؤيتهم، فهم لهم وضعهم الخاص والمنفصل.

أُطلق اللفظ على الأسير العميل الذي يكتشف أمره داخل السجن، فيهرب إلى الإدارة كالعصفور الهارب، ويوضع في غُرفة العصافير" وعادة ما يتم الهروب عندما يتم التمام، فعندما يدخل ضباط السجن لإحصاء الأسرى يفر إليهم الأسير العميل الذي كشفه زملاؤه.

ـ الانفلاش: تعبير لوصف حالة أو سلوك أسير، يتحلل من التزامات الواقع الجماعي المنظم أو الإطار التنظيمي، ويتصرف وفق أهوائه وميوله الشخصية بعيدا عن روح الجماعة والانضباط بأصول الحياة الجماعية في السجن.

ـ الجلسة: تقليد أصيل لدى الأسرى، حيث يجتمعون على شكل حلقات صغيرة داخل الغُرف أو الزنازين، لمناقشة مواضيع ثقافية أو سياسية أو حتى أمور داخلية. وهي أشبه بالحصة المدرسية أو

المحاضرة الجماعية، وهناك جلسات خاصة لكل تنظيم وجلسات مشتركة، وتمتاز بالالتزام والدقة في مواعيد عقدها.

ـ التعميم: موقف أو مادة تنظيمية أو سياسية أو ثقافية أو إدارية أو مالية يتم كتابتها في ورقة وتمريرها على غُرف المعتقلين كافة، وتحمل اسم التنظيم أو الإطار الذي تنطق باسمه، وهو يمثل أبرز وسائل الاتصال بين قيادة الأسرى وقواعدهم في السجن، ويستغل الأسرى الفُورة لتمرير التعاميم.

ـ الفُورة: لفظ يطلق على المدة الزمنية التي يسمح بها للأسير بالخروج إلى ساحة السجن للتريض، وعادة ما تكون ساحة صغيرة، والفترة التي يسمح للأسرى بالخروج إليها قصيرة.

إن كلمة فورة مشتقة من فار فوارا وفورانا، أي يتحرك الأسير بقصد النشاط والحركة بشكل دائري وفي الغالب من اليمين إلى اليسار، ولأنه عادة ما تكون الساحة صغيرة، فلا يكون هناك مجال للأسير إلا الدوران فيها وكأنه يدور حول نفسه.

ـ الكبسُولة: لفظ مشتق من الكلمة الإنجليزية (capsule) أي الوعاء البلاستيكي الذي يوضع فيه الدواء ويكون رقيقا ومحكم الإغلاق، ولا يتم هضمه إلا في المعدة، ويصعب فتحه. أما كبسولات الأسرى فهي أوعية من النايلون الملفوفة جيدا، تغطي مادة مكتوبة، والتي عادة ما تكون على ورق شفاف وبخط صغير جدا، ويتم إغلاقها بالتسخين على لهب قداحة، ويوضع عنوان المادة المكتوبة على ظهر الكبسُولة التي تنقل من سجن لآخر عبر أسير يبلع الكبسُولة، ويخرجها عندما يقضي حاجته، والأمر نفسه مع أسير

سيتم الإفراج عنه، فيبلع كبسولة يخرجها لدى تحرره، وتلعب الكبسولات دورا مهما، للتواصل ونقل المعلومات بين الأسرى داخل السجون، ومع تنظيماتهم وقياداتهم في الخارج.

ـ البوسطة: سيارة نقل الأسرى التابعة لإدارة السجون، وغالبا ما تكون عبارة عن مركبة كبيرة، لا يوجد فيها سوى فتحات صغيرة جدا، وتشبه خزانا مغلقا لنقل الأسرى، الذين يتحملون أبشع أنواع الإذلال والعقاب والضرر الصحي، والمركبة قذرة مليئة بالأوساخ وتنبعث منها الروائح الكريهة، وهناك مركبات صغيرة تسمى الترانزيت تستخدم في حالات خاصة لنقل عدد من الأسر.. ويشرف على البوسطة شُرطة خاصة تسمى (فرقة البوسطة) يمتازون بمعاملتهم الفظة للأسرى المنقولين.